عدد ممتاز

المكتبة الثقافية
العدد ٢٨٤

# مطالعات وذكريات

## أدب وتاريخ



تأليف

العوضي الوكيل

المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)
٢٨٤



# مطالعات وذكريات

## أدب وتاريخ

تأليف

## العوضى الوكيل



# الإهداء

الى ذلك المستمع المجهول الذى عرفنى فى السعودية وأنا أعتمر فى بعض السنين فحيا هذه الأحـاديث وأثنى عليها .

والى ذلك المستمع المجهول الذى عرفنى فى البحـرين وأنا أزورها بدعوة كريمة من صاحب السمو أميرها العظيـم الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ، فحيا هذه الأحاديث وأثنى عليها واستزادنى منها بعد أن حملتها الاذاعة الكويتية الى أسماعه فى أقصى المشرق العربى .

والى ذلك المستمع المجهول فى بيروت الذى قدم نفسه على أنه واحد من ملايين المستمعين الى من اذاعة الكويت ثم أطنب فى مدح هذا المنهج الاذاعى فى عرض الثقافة .

ثم الى اخوان كرام رضوا عن هذا العمل وأعلنوا الى رضاءهم فى كتب حملها الى البريد .

أهدى هذا الكتاب اعتدادا بآرائهم واعتزازا بتقديرهم

**العوضى الوكيل**

مصر الجديدة ( النزهة )

١٩٧٢/٧/١٧

# كلمة

كان هذا الكتاب فى أصله أحاديث ألقيتها على الناس من محطة الاذاعة بالكويت ٠

وقد توخيت البساطة فى عرض موضوعاتهـــا لتحمل التسلية الى جانب المتاع العقلى ، وحرصت فيما رويت عن ذكرياتى أن تكون وفق هذين الشرطين لتستحق بعد ذلك أن تجمع بين دفتى كتاب ٠

ان الحديث الاذاعى ـ فى رأيى ـ وقد مارست الكتابة الاذاعية عقودا من السنين بل وتوليت الاشراف على بعـض المواد الاذاعية يجب فيه أن تراعى البساطة والتشويق معا ولا تكون البساطة حيث تفخم الكلمات وتتعاظل العبـارات ولا يكون التشويق حيث يعاد المعـــاد ويكرر المكرر ويذكر المعروف ويبرز البارز ٠

واحسبنى قد التزمت بشىء من ذلك فلئن كان ، فأنا أديب ملتزم من أدباء ملتزمين وان لم يكن فوا أسفاه ان لم أكن كذلك فادع الله لى أن أكون اياه ٠

**العوضى الوكيل**

# مي ومحبوها

هذه قصة حب عجيبة من قصص الحب في عصرنا ، تقف في أحد طرفيها فتاة واحدة من شهيرات عصرنا في الأدب ويقف في الطرف الآخر جمهرة كبيرة من فطاحلة الأدباء الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس في النصف الأول من هذا القرن .

أما الفتاة فهي الآنسة : مي ، وأما الفطاحلة الآخرون فمنهم الرافعي والعقاد واسماعيل صبري وابراهيم عبد القادر المازني . ونبدأ بلمحة عن مي ، ثم نتحدث عن هذا الحب الذي أفاء على الأدب العربي الحديث كثيرا من الخير .

مي هي الآنسة ماري زيادة ، ولدت في الحادي عشر من شهر فبراير سنة ألف وثمانمائة وست وثمانين بمدينة الناصرة بفلسطين تلك المدينة التي قضى فيها سيدنا المسيح

أكثر أيام حياته ، وكان أبواها مسيحيين ذوى مذهبين مختلفين فى المسيحية فأمها كانت أرثوذكسية وكان أبوها من الموارنة ولكن ميا مع هذا لم تحس بهذا الفارق بين أبويها ولم تجد فى نفسها يوما ما تحيزا لأحد المذهبين .

وفى سنة ألف وتسعمائة وأحدى عشرة نشرت ديوان شعر لها باللغة الفرنسية سمته أزاهير حلم باسم مستعار هو « ايزيس كوبيا » وهو ترجمة تقريبية لاسمها مارى زيادة .

وكانت قد هاجرت مع أبويها الى مصر قبل ذلك بقليل واحترف أبوها الصحافة واحترفت هى تدريس اللغة الفرنسية لبعض أبناء البيوتات وظهرت لها مقالات رائعة فى بعض مجلات ذلك العهد كالمحروسة والزهور ، ثم انصرفت الى الترجمة فترجمت كثيرا من ذخائر الانجليزية والفرنسية الى لغتنا العربية .

ونقترب من حديث الحب فى حياتها فنقول انها لأول مرة فى الشرق ، فتحت صالونها لاستقبال الأدباء والشعراء. وحددت لهم يوم الثلاثاء من كل أسبوع تستقبلهم وتحدثهم فى الأدب والشعر والفن والحياة ، وكانت تدعو بعضهم

بنفسها ، يقول اسماعيل صبرى فى الصالون وصاحبته :

روحى على بعـــض دور الحى حائمـــة
كظامىء الطير تواقا الى المـــــاء
ان لم أمتـــع بمى ناظرىّ غدا
لا كان صـــبحك يا يوم الثـــلاثاء

وقد جن الرافعى بها غراما فقد كان أحد شـــهود ندوتها الجميلة ، وفكر ـ كما يروى الأستاذ المرحوم محمد سعيد العريان فى كتابه حياة الرافعى ـ أن يتخـذها ضرة لزوجته بل انه كما يروى العريان أيضا فى المصدر نفسه كتب أوراقا كالتميمة ظن أنها تجلب له قلب مى وتحببـه فيه وعلقها على سارية بأعلى منزله تتلاعب بها الريح .

وفى الآنسة مى كتب رسائل الأحزان وأوراق الورد والسحاب الأحمر وكان شديد الغيرة عليها فقـد ثار يوما حين انصرفت الى غيره تكلمه وتركته بلا كلام ، وفى ثورة الغضب كتب رسائل الأحزان فى نحو أربعين يوما ، لأنه كان ملتهب العاطفة ساعر الوجدان .

ومن الطرائف أن نذكر هنا أن الرافعى لم يســتطع

كتمان حبه لمى وغرامه العنيف بها فكتب اليهـــا رسـائل يتحدث فيها بلا تورية ولا مواربة عن حبه اللاهب المستعر • ولكن ميا لم تسترح الى هذا اللون من الرسائل ، فشكت أمرها الى الأستاذ فؤاد صروف محـــرر مجـلة المقتطف واستشارته فى أن ترفع الأمر الى القضاء ، ولكنه أشـار عليها بغير ذلك فنزلت على رأيه •

وكان العقاد أيضا من محبيها ولكنه كان أكثر رزانة من الرافعى فقد طوى قلبه على حبه وسكت ، وبقيت مى فى مكانها من قلبه حتى زحزحتها سارة ، أو قل حتى أخرجتها وقد تحدث العقاد عن حبه لمى بعد أن رمز لها باسم هند فى كتابه سارة فقال : « وقد كان همام ــ يعنى نفسه ــ يحب امرأة أخرى حين التقى بسارة فى بيت ماريانا : يحبهـــا الحب الذى جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كمـا ينتظر العاشق موعد اللقاء • وكانا كثيرا ما يتراسلان أو يتحدثان • وكثيرا ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطـــويل ايثارا للتقية واجتنابا للقيل والقال وتهدئة من جماح العاطفة اذا خافا عليها الانقطاع ، ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالانسانين • يتلاقيان وكلاهما على جذوره

ويتلامسان بأهداب الأغصان أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق الى تلك الأوراق .

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل ولا يزيدان . وكان يغازلها فتومىء اليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة فاذا نظر الى عينيها لم يدر أتستزيده أم تنهاه . ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة الى مقام النشوز » .

وكان الدكتور زكي مبارك كذلك من المولعين بها ، وكذلك كان الأستاذ سلامه موسى الذى وصفها وصفا قلميا بديعا فى قوله : « هى مستديرة الوجه زجاء الحاجبين وطفاء الأهداب دعجاء العينين يتألق الذكاء فى بريقهما يجلل وجهها الجميل شعر جثل أسحم وتلعب أبدا على شفتيها ابتسامة الخفر .

وكان الدكتور شميل من المحبين المصرحين ، وكذلك الشاعر ولى الدين يكن والصحافى داود بركات رئيس تحرير صحيفة الأهرام القاهرية الأسبق . بل ان كثيرا من الشعراء كان يتغزل فيها على البعد دون أن يكون

له مكان فى صالون يوم الثلاثاء ففيها يقول الشاعر اللبنانى شبلى الملاط :

وهــل طافوا بمكتبهــا وحجــوا
هنــالك فى الكنــانة منتــداها

كأن الله من ســـحر ودر
أتــاح لمى لاحظـــة وفــاها

وشـــاور أمهـا لمـــا براها
وشــاور ـ يوم كونها ـ أباهـــا

فجـــاءت مى معجزة تنـــاهى
من المعنى اليهـــا ما تنـــاهى

وكم مـــن مـــرة مصر تمنت
وودت أنهـــا احـدى ظبـــاها

ويروى أن جبران خليل جبران كان من بين محبيها، وانه كتب فيها بعض شعره ونثره • وعن صالون مى الأدبى كتب الدكتور طه حسين : « الأديبة البرزة التى لا تحتجب ولا تستخفى ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضى

الظروف لقاءهم . وانما تنظم الاجتماعات الأدبيـــة التى يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكا حرا سمحا فيه كثـير جدا من الرقى والامتياز » .

وقد كتب الكاتبون حول حب مى ، وحول من أحبوا ميا ، وبقى الرافعى والعقاد وحدهما يتنازعان حبها ، ولعل هذا التنـازع كان سـببا من الأســباب الكثيرة التى ألف الرافعى من أجلها كتابه « على السفود » .

لكننا مع هذا لا نقطع بما كانت مى ـ رحمها الله ـ تضمره حيال كل منهما ، هل نصدق العقاد فى أنها ذهبت اليه فى دار صحيفة البلاغ ، حيث كان يعمل ، حين أحست بأنه أحب غيرها ، وأنه حاول ارضاءها وتقبيل يدها فمنعته من ذلك قائلة : دع يدى ودعنى ثم انحدرت من عينيهــا دمعتان ... مسحتهما وانصرفت لا تلوى على شىء !

هل نصدق الرافعى بأنها كانت تعنيه يوم أهدت اليه كتابها « ظلمات وأشعة » وفيه فصل عنوانه « انت أيهــا الغريب » تقول فيه :

« سأستمع الى جميع الأصــوات على أعثر فيها على

لهجة صوتك • وسأبتسم فى المرآة ابتسامتى فى حضورك، سأتحول عنك الى نفسى لأفكر فيك وفى غيابك سأتحول عن الآخرين اليك لأفكر فيك » •

وقد ظن الرافعى أنها أهدت اليه هذا الكتاب خاصة ليقرأ فيه هذا الفصل اشارة منها الى أنه المعنى به •

لكننا مع هذا لا نستطيع أن نحدد ذلك المحبوب الذى ملك قلب مى من هـــؤلاء الفطاحل الأدباء ، فهى لم تبح باسمه لأحد ولا كتبت شيئا يدل دلالة قاطعة عليه واذا كان الشاعر القديم قد قال :

وكل يدعى وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

فان ليلى فى قصتنا هذه لم تقر ولم تنكر وتركت السائلين والباحثين فى عماية من الأمر ليس لها كاشف •

## تزييف التاريخ

منذ حين قرأت فى احدى المجلات الأسبوعية استطلاعا صحفيا وهو ذلك الذى يسمونه « ريبورتاج » عن أحد الأدباء المعاصرين ، وقد امتلأ الاستطلاع بأشياء وحوادث لا تتصل بالواقع ، الا كما يمكن أن تتصل السماء بالأرض ولكن كاتب الاستطلاع الذى أراد أن يطرف قراءه بطرف من الحديث لم يتوخ فيه الدقة والأمانة بقدر ما توخى خلق الطرائف والنوادر والحكايات .

ولسوف يجيء مؤرخو الآداب بعد عصرنا فيكتبون عن أمثال هذا الأديب ويترجمون حياته وأدبه ويجعلون من بين اسنادهم مثل هذا الاستطلاع الصحفى ويجيء من بعدهم خلق آخرون ، فيحاولون المطابقة بين حياة هذا الأديب وأدبه فيبدأ شكهم فى صحة ما ورد فى الاستطلاع وهكذا تقوم قضية من قضايا الأدب .

ذكرت هذا وأنا أنظر فى خبرين عن وفاة شاعرين من أعظم شعراء العربية فى العصر العباسى ان لم يكونا أعظم شعرائها فيه وفي غيره من العصور ، ذانكم الشاعران هما ابن الرومى ، وأبو الطيب المتنبى لقد قتل أبو الطيب ما في ذلك شك ولكن ظروف قتله وآخر كلماته وآخر ما جرى من الحديث بينه وبين غلمانه قد لعب بها خيال المترجمين ورواة حياة الشاعر وشعره ، فجعل منها قصة تستطاب حكايتها في مجالس المتأدبين وسَمَر السمار .

ومات ابن الرومى وكان من اللازم أن يدخل حياته ومماته خيال المترجمين ورواة حياة الشاعر وشعره ، فخلقوا من موته قصة تستطاب حكايتها فى مجالس المتأدبين وسمر السمار وحاولوا التقريب بين ذلك وبين بعض ماقال من الشعر فى أيامه الأخيرة لتكون القصة أكثر حبكة وأعظم تشويقا ، فأما أبو الطيب المتنبى فقد رووا أنه كان عائدا من بلاد فارس وبينه وبين بغداد ستة عشر فرسخا . قرب الصافية وهناك خرج عليه فاتك بن أبى جهل الأسدي فى نيف وثلاثين فارسا رامحين وناشبين أى انهم كانوا يحملون رماحا للطعن وسهاما يرمونها من بعيد ، وكان

فاتك هذا يتربص بأبى الطيب لينتقم لابن أُخته ضبة الذى هجاه المتنبى بقصيدة عنيفة ، شديدة العنف . فلما رأى المتنبى كثرة خصـومه وقوتهم وتسليحهم رأى من الحزم ألا يواجههم فى معـركة وأن يسارع بالفرار لكن غلامه عنفه تعنيفا شديدا وقال له : كيف تفر وأنت القائل :

الخيل والليل والبيـــداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال المتنبى له : قتلتنى وثنى عنان فرسه الى وراء ولاقى أعداءه فاقتتلوا حتى قتلوه وقتلوا جميع من معه .

ويجب ، لكى نصدق هذا الخبر ، أن نفترض أن هذا الغلام أكثر حمية وشجاعة وخوفا من عار الفرار من المتنبى وهو أمر ينفيه ما نعلمه من خلق المتنبى وما نعرفه عن شجاعته .

ثم نتساءل : اذا كان المتنبى ومن معه قتلوا جميعا كما يقول الرواة فمن الذى نقل هـــذا الحديث الذى جرى بالطبع قبل المعركة فتلقفه رواة الأخبار . ان هذا الحديث اذا كان قد تم بين المتنبى وغلامه فقد ضاعت تفصيلاته بموت

الجميع فقد مات طرفا الحديث ومات الشهود ، ولم يبق بعد ذلك الا خيال الرواة .

وأما ابن الرومي فأمره أعجب ، واليك ما قاله ابن خلكان في شأن وفاته :

« وتوفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ببغداد ودفن في مقبرة باب البستان ، وكان سبب موته ـ رحمه الله تعالى ـ ان الوزير أبا الحسين القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو في مجلسه فلما أكلها أحس بالسم فقام ، فقال له الوزير : الى أين تذهب: فقال: الى الموضع الذي بعثتني اليه فقال: سلم لي على والدي، فقال له ما طريقي على النار ، وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياما ومات. وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم فزعم أنه غلط في بعض العقاقير. وقال ابراهيم ابن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه رأيت ابن الرومي يجود بنفسه فقلت له ما حالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب على غلطـــة مورد
عجـزت موارده عن الاصـــدار
والناس يلحون الطبيب وانمـــا
خطأ الطبيب اصابة الأقـــدار

هذه هى قصة وفاة ابن الرومى كما وردت فى كتب تواريخ الأدب وقد همنى منذ نحو ثلاثين سنة أن أحقق هذه القصة بتوجيه وارشاد من الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله .

وبدأت التحقيق ببيتيه اللذين قالهما فى مرض وفاته وقد زاره بعض الناس وكان مصابا بمرض سلس البـول فقال كأنما يعتذر لهم عما رأوا من وساخة ثيابه وفراشه :

غـــدا ينقطـــع البـــول
ويمضى الهـــول والعـــول
ألا ان لقيـــاء اللـــــ
ـــه هـــول دونه الهـــول

وقد سألت بعض كبار الأطبـــاء فى عصرنا ومنهـم الدكتور عبد العزيز اسماعيل والدكتور سيد عفت عن هذا

الموضوع فقرروا أنه لا توجد مادة سامة تطلق البول وأن سلس البول هذا انما كان ظاهرة لمرض آخر هو غير السم بلا خلاف .

من هنا بدأ الشك فى صحة الرواية حول وفاة ابن الرومى وقوى هذا الشك بتفاصيل الحوار المزعوم بينه وبين الوزير الذى أراد أن يقتله فان الانسان المسموم الذى أكل سما وظهرت عليه أعراضه لا يكون فى حال يمكن معها أن يطلق النكتة والسخرية ، وأن يقول للوزير انك تريد أن تحملنى السلام الى أبيك وأبوك فى النار ولكن طريقى انما هو الى الجنــة لا الى النــــار ، وابن الرومى لا يستطيع مثل هذا الحديث وهو مســـــموم . واذا كان الثابت من أشعاره ـ وهى أوثق مصادر حياته ـ انه مرض طويلا وانه لازم الفراش طويلا ، فقد وهنت رواية السم وضعفت واستحقت أن تطرح من حياة هذا الشاعر الكبير وان تكون من وضع أولئك الذين يزينون للناس مايكتبون بالتلفيق والتزويق ليروج عند الناس وينفق لدى السامعين ومن الواجب أن نفـــرق فى تاريخ الأدب بين الطرائف المختلقة والوقائع الصحيحة .

## ابن مفرغ الحميرى

هذا شاعر من شعراء العصر الأموى ، اشتهر بالغزل والهجاء معا ، واتصف بعدم المبالاة فهجا الخلفاء والأمراء ، واشتدوا فى طلبه ، فعاش شريدا طريدا ، ثم ظفروا به ؛ لكنهم لم يقتلوه ، رعاية لبعض أقاربه ، فاكتفوا بتأديبه ، بناء على تعليمات معاوية ، فكان التأديب قاسيا ؛ بل انه كان شديد القسوة ، ذلك الشاعر هو يزيد بن مفرغ صاحب البيت المشهور :

العبــــد يقــــرع بالعصـــا
والحـــر تكفيه المـــــلامة

وقد صحب عباد بن زياد بن أبيه ، ولكن عبادا لم يستطع ـ لبخل فيه أو غلظ ـ أن يرضى عنه الشاعر ، ففارقه الشاعر ، وأخذ يذيع فى الناس أهاجيه فى عباد ، بل ويكتبها على الحيطان ، واستغل قصة الحاق زياد ابن ابيه بأبى سفيان أسوأ استغلال ، وأخذ منها مادة دســـمة

لهجاء ابنه عباد ، ومعروف ان استلحاق نسب زياد لأبى سفيان اقتضى أن يشهد قوم على أبى سفيان بالزنا مع سمية أم زياد ، وفى ذلك يقول ابن مفرغ مخاطبا معاوية عم عبــاد :

ألا أبلغ معــاوية بن صخـر
مغلغلة عن الرجل اليمـــانى

أتغضب ان يقـــال أبوك عف
وترضى ان يقال أبوك زان

فأشـــهد ان رحمـك من زياد
كرحم الفيل من ولد الأتان

وأشهـــد أنها ولدت زيـــادا
وصخر من ســـمية غـير دان

وقد ماتت سمية قبل أن يلحق ابنها بنسب أبى سفيان ففى ذلك يقول ابن مفرغ :

فكر ففى ذاك ان فكرت معتبـــر
هل نلت مكرمة الا بتـــأمير

عاشت سمية ما عاشت وما علمت

ان ابنها من قريش فى الجمـاهير

وحين ظفروا بالشاعر كلفوه أن يمحو بأظافره وأنامله ما كتب على الجدران من الهجاء فمـــا زال يمحوها حتى فسدت أنامله وأورثته ألما شديدا ، لكنهم مع هذا لم يكتفوا بهذا العقاب على شدته فسقوه شرابا مسهلا ، وحملوه على حمار ، وقرنوا به خنزيرة سقيت هى الأخـــرى شرابا مسهلا ثم طافوا به شوارع البصرة وهو يسهل على نفســه وتسهل عليه الخنزيرة ، وهو فى كرب عظيم لما به ، وقد أغمى عليه من شدة الاسهال فلما أفاق كان أول مانطق به هذا البيت فيمن عذبه :

يغســـــل الماء مافعلت وقــولى

راسخ منك فى العظام البوالى

وكان عباد ـ المهجو ـ كبـير اللحية ـ يقول ابن خلكان ـ كأنها جوالق ، فدخلت فيها الريح فنفشتها فقال ابن مفرغ :

ألا ليت اللحى كانت حشيـــــشا

فنعلفها خيـــول المســلمينا

وكان قبل اصطحابه عبادا هذا فى صحبة سعيد ابن عثمان بن عفان ، ولكنه فارقه الى عباد فكان منه البخل وكان هذا الهجاء :

لهـفى على الأمـر الذى
كانت عواقبـه نـدامه
تركى سعيدا ذا النـدى
والبيت ترفعـه الدعـامه
ليثا اذا شـهد الوغى
ترك الهوى ومضى أمامـه
فتحت سـمرقند لـه
وبنى بعرصـتها خيـامه
وتبعت عبـد بنى عـلا
ج ... تلك أشراط القيامه
جاءت بـه حبشـية
سـكاء تحسـبها نعـامه

وابن مفرغ هذا من بلدة باليمن اسـمها « تبالة » وهى أول ولاية وليها الحجاج بن يوسف الثقفى ، وحين

مضى اليها ، سأل عنها فقالوا له انها وراء تلك الأكمة فقال لا خير في ولاية تسترها أكمــة ورجع عنها محتقرا لهــا وتركها وضرب بها ــ بعد ذلك ــ المثل فى الهوان وحقارة الشأن فقالوا : أهون من تبالة على الحجاج !

لكن ابن مفرغ هذا ليس شرا كله وليس هجاء كله، فله فى الحماسة شعر وفى الغــــزل ومنه تلك الأبيــــات المشهورة :

الا طرقتنا آخر الليل زينب
عليك سلام هل لما فات مطلب

وقالت تجنبنـــا ولا تقربننـــا
فكيف وأنتم حاجتى أتجنب

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب
فقلت وهل قبل الثــلاثين ملعب

لقد جل خطب الشيب ان كان كلما
بدت شيبة يعرى من اللهو مركب

لكنه لم يتركها خالصة لغرضها الجميل فأتبعها بهذين البيتين فى هجاء بعض خصومه وما كان أكثرهم :

فلو أن لحمى اذ وهى لعبت به
كرام ملوك أو أسود وأذؤب

لهون من وجدى وسلّى مصيبتى
ولكنما أودى بلحمى أكلب

وحتى اسمه ابن مفرغ هذا ، قصت حوله القصص الضاحكة أو الساخرة ، فجده فى احدى القصص راهن على سقاء من لبن أن يشربه كله وكان السقاء عظيما فشربه حتى أفرغه فى بطنه فلم يبق منه شيئا فسموه من يومها المفرغ ، أو هو كان حدادا باليمن فعمل لامرأة قفلا وشرط عليها أن يكون أجره زقا مملوءا بلبن فجاءته به ، فشرب منه ووضعه فاستعجلت المرأة زقها وقالت لا بد منه الآن فأخذه ففرغه فى جوفه مرة واحدة فقالت المرأة مستعجبة انك لمفرغ كله فشاع اللقب وانحدر منه الى هذا الحفيد المسكين .

وتأتى لابن مفرغ هذا سيرة فى تاريخ الآداب ذلك انه هو الذى وضع سيرة تبع وأشعاره ولكنى لم أستطرد فى البحث عن هذه السيرة لعلها تكون قصة فنية ذات معالم وأشراط أدبية يستفيد منها أصحاب الدراسات الأدبية .

وقد حاول ابن مفرغ يوم أراده خصـــومه من ذوى السلطان أن يستجير برجال من ذوى الكرامة والقدر فى عصره ، فذهب الى الأحنف بن قيس ـ الذى يضرب به المثل فى الحلم ـ فقال له الأحنف انى لا أجير على ابن سمية ـ يعنى زيادا ـ فاعزله وانما يجير الرجل على عشيرته واما على سلطانه فلا ، ولم يرض أحد أن يجيره لكن رجلا فى البصرة اسمه المنذر بن الجارود العبدى رق له فأجاره ـ وكانت بنته زوجة لعبيد الله شقيق عباد بن زياد ـ لكن عبيد الله لم يقبل هذا الجوار من صهره وهدد بطلاق ابنته ان هو أصر على هذا الجوار .

## العبقرية العربية

هذا رجل أعرابى أمى ، لا يعرف القراءة والكتابة ، كان يعيش فى العصر الأموى يبهر الناس خطيبا، ويسحرهم متحدثا ، ويشتهر بالفصاحة والبلاغة والعلم بأسرار هـذه اللغة الشريفة فى غرائب كلماتها ومؤديات كناياتها ويضرب به المثل ويدخل اسمه أمثلة أهل النحو ويقولون عنه انه « أحد بلغاء الدهر » ...

هذا الأعرابى الأمى العظيم يعرفه التاريخ الأدبى باسم « ابن القرية » ولكن اسمه كان « أيوب بن زيد » ينتهى نسبه الأعلى الى عدنان ، جد النبى صلى الله عليه وسلم .. والقرية أمه أو جدته وهذا أيضا كان لقبا لها وأما اسمها فقد كان « جماعة بنت جسم » يرتفع نسبها حتى يصل الى الخزرج .

وكان أيوب هذا عبقرية من عبقـريات العـرب ، مطمورة فى رمال البادية ، حتى كشفت احدى الصـدف

عنها ، قالوا : أصابته السنة ـ أى القحط وانجدب ـ فقدم عين التمر وعليها عامل للحجاج ، وكان العامل يبسط مائدته لمن يشاء أن يأكل فى الغداء والعشاء ، فوقف ابن القرية بالباب يسأل عن أفواج الداخلين الى أين يدخلون ؟ فلما قيل له انهم يدخلون الى طعام الأمير ، دخل معهم فأصاب غداءه ثم سأل: أكل يوم يصنع الأمير ما أرى ؟ فقيل له نعم فى الغداء والعشاء ، فلم يتحول عن هذا السماط الممدود حتى كان يوم ذهب فيه الى حيث كان يجد الطعام فلم يجد أميرا ولا طعاما ، فسأل فقالوا له : لقد اغتم الأمير لكتاب ورد عليه من الحجاج عربى غريب لا يدرى ماهو ؟ فندب نفسه لتفسيره وبيان غريبه فقرىء عليه الكتاب ففسره وعرفه جميع ما فيه ، وأملى على أحد كتاب الأمير جوابه فلما وصل الكتاب الى الحجاج رأى جوابا عربيا غريبا ، ليس للعامل بمثل بلاغته وفصاحته عهد فدعا برسائله السابقة ، وأيقن منها أن الكتاب الجديد ليس من كتابة هذا العامل فكتب اليه رسالة موجزة يقول فيها : أما بعد فقد أتانى كتابك بعيدا من جوابك بمنطق غيرك فاذا نظرت فى كتابى هذا فلا تضعه من يدك حتى تبعث الى بالرجل الذى

صدر لك الكتاب والسلام. وذهب ابن القرية الى الحجاج ثم مضى الى الخليفة عبد الملك وطبقت شهرته بعـــد ذلك الآفاق .

وهذا الذى تحدثنـا به الآن عن ابن القرية يمثـل الفصل الأول من حياة هذا الخطيب المفوه أما بقية فصـول هذه الحياة ، وسنلم بها بعد حين ، لا تقل عن هذا الفصل اثارة وغرابة مما حمل بعض الناس كالأصمعى أن ينـكر وجود هذه الشخصية يروى عنه صاحب الأغانى انه كان يقول :

رجلان ما عرفا قط فى الدنيا الا باسم : مجنون بنى عامر وابن القرية ، فانهما وضعهما الرواة .

أما بقية فصول هذه الحياة ، فهى ان الحجاج قد بعث به الى رجل كان قد شق العصا وخلع الطاعة ، بعث به اليه لعله يصلحه ويرده الى الجادة بكلمة بليغة أو خطبة ساحرة فلما دخل ابن القرية عليه أبى أن يسمع منه الا أن يعلن خلع عبد الملك من الخلافة وسب الحجاج بن يوسف أو يأمر بقتله ولم يجد ابن القرية مفرا من الاذعان فقـــام وخطب وخلع عبد الملك وسب الحجاج وخاف أن يعود الى

الحجاج بعدها فأقام لدى هذا المتمرد ثم ما لبث الحجاج أن ظفرت قواته بهذا المتمرد ووقع ابن القرية أسيرا فى أيدى رجال الحجاج فساقوه اليه وتضطرب الروايات فى آخر حديث جرى بينهما بعضها يروى ان الحجاج سأله عن القبائل والمواطن والديار فأجابه بعبارات مزدوجة فيها سجع جميل كأن يقول : ان أهل اليمن أهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة وكأن يقول عن قريش :

أعظم العرب أحلاما وأكرمها مقاما ، وعن بنى عامر ابن صعصعة : أطولها رماحا وأكرمها صباحا ، وعن بنى سليم أعظمها مجالس وأكرمها محابس ، وعن ثقيف أكرمها جدودا وأكثرها وفودا ، وعن البصرة شتاؤها جليد وحرها شديد وماؤها ملح وحربها صلح، وعن الكوفة ارتفعت عن بحر البحر وسفلت عن برد الشام فطاب ليلها وكثر خيرها وعن مدينة واسط : جنة ، بين حماة وكنة ، والكنة امرأة الابن أو الأخ وهو يعنى بحماتها وكنتها الكوفة والبصرة.

ويروى بعضها أن الحجاج سأله فقال : العرب تزعم أن لكل شىء آفة فما آفة الحلم قيل : الغضب ، قال فما آفة الحجاج بن يوسف فقال ابن القرية : أصلح الله الأمير

إلا آفة لمن كرم حسبه وطاب نسبه وزكا فرعه فقـــال له الحجاج وكأنما كان يعارضه في اسجاعه : امتلأت شقاقا وأظهرت نفاقا ، ثم أمر به فضرب عنقه وانتهت حياة الرجل وكانت في غرابتها وأثارتها سببا فى أن ينكر بعض الناس وجوده أو يحسبوه شخصـــية خيالية من ابتــداع الرواة والقصاصين •

ونجد المجال مناسبا للحديث عن معنى كلمة الأمى التى وردت فى القرآن الكريم أكثر من مرة ووصف بها سيد الخلق صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : « الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » •

« لا أله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » • « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » •

ونبحث عن كلمة الأمى فى المعجم فنجـد أن الأمى

من لا يكتب أو من على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب وهو باق على جبلته وهو ـ فيما قالت المعاجم ـ نسبة الى الأم أو الى الأمة .

وفى أحدث كتب العقاد «الاسلام دعوة عالمية» الذى جمعوا فيه بعض مقالاته مقال عن معنى كلمة الأميين ، وهو يقول : ان أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين أجمعين كانوا الى ما بعد ظهور الدعوة الاسلامية يقسمون العالم الى قسمين :

بنى اسرائيل والأمم التى ليست منهم ويزعم اليهود خاصة أن بنى اسرائيل وحدهم هم أهل النبوة والرسالة الذين اختصهم الله دون سواهم من العالمين بالكتب المنزلة والأنبياء المرسلين وان من عداهم من الأمم لا نبوة فيهم ولا كتاب لهم وليسوا من الموعودين بالهداية والرضوان .

وقد وردت كلمة الأميين بهذا المعنى فى جميع كتب اليهود وهى ترد دائما فى مقابلة اليهود .

هذا هو أصل الكلمة مشتقا من الأمة بهذا المعنى ومستعملا فيما عداه استعارة والأمى اذن كلمة صحيحة على

كلتا الناحيتين ولكن النبى العربى صلى الله عليه وسلم لم يكن أميا في القرآن الكريم الا بمعنى واحد منهما هو انه من أمة غير أمة اليهود وقد يكون صلوات الله وسلامه عليه أميا بالمعنى الثانى ولكن القرآن الكريم لم يشر الى هـــذا المعنى فى المواضـــع الستة التى وردت فيها كلمـة الأمى والأميين لأنها جاءت جميعا لترد على دعوى اليهود أن يكون نبى من غيرهم أو كتاب يوحى به الى سواهم . وان كان مفسر عظيم كالقرطبى قد قال ان الأمى هو المنســوب الى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها قاله ابن عزيز وروى عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب وذكر أيضا أن الأمى قد يكون منسوبا الى أم القرى وهى مكة .

ويختم العقاد بحثه القيم بهذه العبارة : وعلينا أن نفهم أن النبى العربى والنبى الأمى بمعنى واحد وأنه عليــه السلام لم يكن يتلو كتابا قبل الكتاب المنزل عليه ولا كان يخطه بيمينه « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون » صدق الله العظيم وصدق

سبحانه اذ قال : « اتل ما أوحى اليك من الكتاب » فليتدبر هذا الأمر بالتلاوة من يتوهم ان التلاوة تنقض معنى الأمية على وجه من الوجوه •

هذه هى أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما أمية ابن القرية التى ساقت الينا هذا البحث أو ساقتنا اليه فهى الأمية بمعناها الثانى معنى عدم معرفة القراءة والكتابة •

## المتنبى يتحدث عن نفسه

نريد أن نقف مع الشاعر الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، ولا يزال يملؤها ويشغلهم ، مع أبى الطيب المتنبى، ولن نستطيع بالطبع أن نعرضه كله ، بل اننا سنأخذ طرفا يسيرا من شعره نتحدث به عنه ذلك هو احساس المتنبى بعظمة شاعريته وتفوق شعره على أشعار غيره من الناس . ولئن كان هذا يدخل فى باب الفخر فانه فخر يمتاز به شعر المتنبى على فخر غيره من الشعراء والمتنبى هو الذى يقول :

أمط عنك تشبيهى بمـــا وكأنه
فما أحد فوقى ولا أحد مثـــلى

وهو لا يقول من الشعر الا أصعب القصائد مركبا ، وأدق المعانى مأخذا ، وأعسرها على غيره من الشعراء ، أليس هو القائل :

أراكض معوصات الشـــعر قسرا
فأقتلهــا وغـيرى فى الطراد

ونبـــدأ بقصـــة لطيفة من لطـائف قصص المتنبى وما أكثر قصصه اللطائف ، تدخل فى مجال اعتداده بشعره وفخاره بفنه ذلك ان رجلا من الأمراء يدعى عليا بن محمد ابن مكرم التيمى أرسل الى المتنبى بعض الهدايا والعطايا، وكأنه كان يطلب منه مدحـــة يخلد بها اســـمه على الأيام وأرسل هذه الهدايا والعطايا مع وكيل له ، كان كما وصفه مؤرخو الآداب يتعرض للشعر ، فحمل الرسول الألطاف الى أبى الطيب ، لكنه حمل معها بعض شعره وكان غثا تافها من مثل قوله :

فؤادى قـــد انصـــــدع
وضرسى قـــد انقـــلع

ولليــــــالى عقــــلى
قد انهـــوى وما رجـــع

يا حب ظبى غنـــــج
كالبـــدر لمـــا ان طلع

فقـــــلت ته ته ته وته

فقال لى مـــــر يا لكع

هات قطـــع ثم قطـــع

ثم قطـــع ثم قطـــع

وضـــع بكفى وفى

جيبى ادعك ان تَضَـــع

وفوجىء المتنبى بالرسول الشاعر مفاجأة ، لكنه لم يرد أن يؤذى مشاعره فهو رسول أحد الأمراء وضـمن المدحة المطلوبة أبياتا ساخرة متهكمة لاذعة تحدث فيها عن هذا الشويعر الذى يقتحم مهابة أمير شعراء عصره ، قال أبو الطيب فى هذه الأبيات :

تيممنى وكيلك مادحا لى

وأسمعنى من الشعر الغريبا

ولست بمنكر منك الهدايا

ولكن زدتنى فيهـــا أديبا

فآجـرك الاله على عليـــل

بعثت الى المسيح به طبيبـا

انه يقول للأمير لقد وصلتنى الهدايا كاملة غير منقوصة ، بل انها وصلت مزيدة ، والزيادة هى هذا الأديب الذى أنشدنى بعض أشعاره . وهذه كما نرى سخرية لاذعة .

ويقول للأمير كذلك ، آجرك الله على هذا العليل فقد بعث طبيبا الى المسيح الذى يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى باذن الله ، وهو طب يعيا به كل أطباء الدنيا فما أعجب هذا الطبيب العليل الذى يريد أن يعالج بطبه وبعلته معا ، سيدنا المسيح .

والحق أن الرسول يستحق كل هذا التهكم من سيد الشعراء وكان يجب عليه أن يعلم انه موفد الى المتنبى .

وشعر المتنبى هو فى الصدارة من الأشياء التى يفتخر بها لقد افتخر بشجاعته وقوته وخوضه الغمرات وافتخر بأخلاقه ولكن فخاره بشعره ، كان نمطا من الشعر عاليا . واسمعوا الدالية العظيمة فى سيف الدولة التى يتحدث فيها عن نفسه وعن شعره :

وما الدهر الا من رواة قصائدى

اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغردا

أجزنى اذا أنشدت شعرا فانما
بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتى فاننى
أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

وهو يتمادى فيوازن بينه وبين سائر مادحى سيف الدولة :

ليس قولى فى شمس فعلك كالشمـ
ـس ولكن فى الشمس كالاشراق

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ
كلانا رب المعانى الدقاق

لم تزل تسمع المديح ولكن
صهيل الجياد غير النهاق

فهم ينهقون وهو يصهل وشتان بين النهاق والصهيل.
بل انه يعتبر الشعراء غيره يقدمون بأمداحهم عملات زائفة

مدلسة وهو انما يقدم الدر الذى يميزه الانتقـــــاد يقول لممدوحه :

انى نثرت عليـــك درا فانتقـــد
كثر المدلّس فاحذر التدليسا

حجبتها عن أهل انطاكيـــة
وجلوتها لك فاجتليت عروسا

واذا كان قد سار بشعره من لا يسير وغنى به من لا يغنى فغرد ، فان هذا المعنى قد أعجبه فردده بصـــور مختلفة منها :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولا جدال فى أنه كان يرى أن جودة شعره مؤذنة بسيرورته فى الزمان ما عليه الا أن يقول وعلى الأيام أن تجرى بقوله فى مشرق الأرض ومغربها يقول :

وعندى لك الشرد السائرات

لا يختصصن من الارض دارا

قواف اذا سرن عن مقولى

وثبن الجبل وخضن البحارا

ولى فيك ما لم يقـــل قائل

وما لم يسر قمر حيث ســارا

ويقول أديبنا متحدثا عن شعره :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق

وغرب حتى ليس للغرب مغـرب

وهو يرى كذلك أن أبياته كالمهارى العتاق تنشدها فتعرف أصالتها يقول لابن العميد وهـــو الكاتب الأديب النقاد :

فبعثنـــا بأربعـــين مهارا

كل مهــر ميدانه انشاده

ومن لطائف ما يقال هنا ، ان هذا البيت من القصيدة التى مدح بها ابن العميد ليس هو البيت الأربعين فيهـــا ،

بل هو البيت الثامن والثلاثون فيضطر المتنبى الى اكمال القصيدة لتبلغ أربعين بيتا ويجد أمامه فرصة جديدة للحديث عن شعره فيقول لابن العميد :

فارتبطها فان قلبا نماها

مربط تسبق الجياد جياده

يعنى بذلك أن قلبه ينتج شعرا رائعا يعلو على أشعار القائلين سواه .

وهو حتى فى مقام الغزل يتحبب الى محبوبته بالبلاغة والشعر فيقول :

جفتنى كأنى لست أنطق قومهـا

وأطعنهم والشهب فى صورة الدهم

وثمة ناحية فى فخره بقوافيه تستحق ان نلم بها المامة يسيرة ذلك انه يرى أن قوافيه حين يسبغها على ممدوحيه تكسبهم شرفا يغيظون به أعداءهم بل انها أحيانا قد تجر على هؤلاء الممدوحين بعض العداوات ، انظر الى قوله :

رميت عداه بالقــوافي وفضــله

وهن الغوازى السالمات القــواتل

والى قوله :

رب نجيع بسيف الدولة انسفكا

ورب قافيـــة غاظت به ملــكا

وقوله عن شعره :

فاذا مر بأذنى حاســـد

كان ممن كان حيا فهلك !

وبعد ، فان أبا الطيب المتنبى بحر بعيد الغور ، لكننا اقتصرنا على ما أبداه من الرأى فى اشعار نفسه فخارا بها وتقديرا لمنازلها • هذه الأشعار التى جعلته يقول :

لا بقومى شرفت بل شرفــوا بى

وبنفسى فخرت لا بجــدودى

وبهم فخر كل من نطق الضا

د وعوذ الجانى وغوث الطريد

ان أكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القوافى
وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا فى أمة تداركها الله
غريب كصالح فى ثمود

## من شعراء الكويت الرواد

ننظر الآن فى طائفـــة من دواوين شــعراء الكويت الرواد ، من الجيل الذى يسبق جيلنا ، أتيحت لأشــعارهم أن تجد سبيلا الى النشر على أيدى نفـــر من كرام أدباء الكويت وذوى الغيرة على تاريخه الأدبى والفنى ، أمامى الآن ثلاثة دواوين هى ديــوان فهـــد العســـكر الذى نشره الأستاذ عبد الله زكريا الأنصـــارى ، وديوان خالد الفرج الذى نشره الأستاذ خالد سعود الزيد وديوان صقر الشبيب الذى جمعه ونشره الأستاذ أحمـد البشر الرومى وليس من المنتظر منى أن يكون هذا الحديث عرضا نقديا للدواوين الثلاثة ، ولا تحليلا أدبيا أو فنيا لها ، فذلك مدى يضيق عنه وقت الحديث ، وليكن الحديث كأنه تحية أو كأنه تقدير لنشر هذه الدواوين فلعل المخبوء من كنـــوز الأدب الكويتى ، وما أكثره ـ يظهـــر للناس فينتفعون بنفائسه .

لقد سبق لى فى بعض أحاديثى الاذاعية أن تحدثت عن فهد العسكر ، وقد وجدت الصديق الكريم الأستاذ عبد الله زكريا الأنصارى يشبهه فى تشاؤمه بعبد الرحمن شكرى الشاعر المصرى الكبير والذى كان أحد أركان مدرسة الديوان لكنى أرى فى هذا الشأن رأيا يخالف رأى الصديق العزيز فأنا متفق معه على أن فهد العسكر شاعر متشائم ومتفق معه على أن عبد الرحمن شكرى من شعراء التشاؤم كذلك ولكن الخلاف هو فى طبيعة تشاؤم كل منهما فتشاؤم العسكر تشاؤم فنان وتشاؤم شكرى تشاؤم فيلسوف ونموذجا التشاؤم الشهيران والكبيران فى الأدب العربى هما ابن الرومى على بن العباس ، وأبو العلاء المعرى ، وتشاؤم ابن الرومى يغاير تشاؤم المعرى مغايرة واضحة ، والفرق بين التشاؤمين ان نظرة الفيلسوف المتشائم تشمل الناس كل الناس ، حيث كانوا ومتى كانوا وان نظرة الفنان المتشائم لا تكاد تتعدى نفسه ، فتشاؤمه ينبع من داخل نفسه بخلاف المتشائم الفيلسوف فان تشاؤمه يدخل الى نفسه من خارجها . لكنى مع هذا أريد أن أنصف العسكر وأخاه القديم فأقول انهما أقرب الى وجدان القارىء منهما

الى عقله وتفكيره ، ويبقى بعد ذلك أن أقول ان العسكر أحسن صياغة وأجود سبكا من زميله المصرى ، ولعل هذا جاء نتيجة منطقية للتفرقة التى أوضحناها بين تشاؤم الفن وتشاؤم الفلسفة .

وأما ديوان خالد الفرج فقد نشره الأستاذ خالد سعود الزيد وأضاف اليه معظم ما أنتجته قريحته فى غير ميدان الشعر ومنه رسالة قيمة فى تبسيط الحروف العربية واصلاح الكتابة من ثلاث نواح هى ناحية الحروف بجعلها بسيطة متناسبة مرنة مختصرة وناحية المنطق بايجاد حركات ثابتة لازمة ترسم فى صلب الكلمة حتى يعتاد النشء على النطق بالكلمات صحيحة والناحية الثالثة ناحية الاملاء لتكون هناك مطابقة بين ماينطق به الناطق وما يكتبه الكاتب فتحذف واو عمرو وما ماثلها .

والفرج شاعر مفكر ، أو قل ان التفكير يغلب على شعره ولكنه مع هذا يبقى شعرا ذا مائية وذا رونق فنى واضح ، انما يلفت النظر فى أشعاره تسجيلها الواعى الدقيق لأحداث السياسة العالمية والقومية فلم يمر به شىء

الا وسجله فى شعره وتستهويه بعض المعانى القومية فيعود الى تسجيلها المرة بعد المرة • ويعطيها فى كل مرة اطارا جديدا من طاقته الشعرية الوهوب • وعلى ذلك فان أروع شعره على الاطلاق هو الشعر السياسى ومنه فلسطينياته الروائع • ونرى نحن هنا ما رآه الأستاذ خالد سعود من أن قصيدته الغرب والشرق هى قمة قصائده القومية وفى بعضها يقول :

يا قوم فى أحوالنا عبرة
فليقم النائم من رقدته

فمن تغدى بأخى ضحوة
فقد تعشى بى فى ليلته

وكلنا ينشد فى سره
ما قاله الشاعر فى حكمته

من حلقت لحية جار له
فليسكب الماء على لحيته

ندور لكن دوران الرحى
والناس مثل النور فى سرعته

والغرب لا يسمع صـوتا لنا
ان لم يك المـدفع فى نبرته
لا يدفع الغرب سوى بأسه
أو قوة تسـمو الى قوته
أولا فان لم نجتمع عـاجلا
ونحصر العنصر فى وحدته
ستأكل الهـرة أولادها
ويحصل القط على حصته
فحسبنا الاسـلام من جامع
ونحن من يعرب فى دوحته
لا تسـأل الآخر عن مذهب
فى دينه واسـأله عن أمتـه
يحمى كيان القوم اجماعهم
أولا فأرسـلهم الى رحمتـه

أما شـاعرنا الثالث صقر الشبيب الذى جمع ديوانه ونشره الصديق الأستاذ أحمد البشر الرومى ، فهو ديوان المطولات حقا فثمة قصيدة واحـدة فيه على وزن واحد

وروى واحد بلغت مائة وتسعة وثلاثين بيتا • وهى قصيدة « بين الجد والهزل ، عنز تأكل الكتب » وفى صقر الشبيب بعض لمحات من ابن الرومى احداها هذا الطول فى قصائده كما رأينا فى قصيدة العنز وكما نرى فى قصيدته « لهفى على الفصحى » وقد نظمها أسى على حال اللغة العربية بعد أن سمع أحد المدرسين يكثر من اللحن وهو يلقى درسا فى اللغة العربية ، واللمحة الثانية ان كثيرا من شعره فيه ما يمكن ان نسميه الموضوعات الشخصية فى الشعر التى تترجم لصاحبها وتوضح نفسه وقد قرأنا لابن الرومى قصيدته شاكيا الى أحد الوزراء ان غصب أحد الجيران جزءا من داره ، ففصل الشكوى تفصيلا لا تفصيل بعده وها نحن أولاء نقرأ شبيهتها لصقر الشبيب قصيدة من روائعه جاوزت الستين بيتا عنوانها « قرعة الجابى » والجابى محصل الأموال ، ويقصد بقرعته طرقه على الباب والقصيدة تكاد تخرج من البابة التى أخرج منها ابن الرومى قصيدته يقول صقر فى مستهلها :

يا رئيس البلدية
لا أصابتك بليه

انظر اليـــوم فدتك النـ
ـفس في هـــذى القضـــيه

طلبـــوا منى ماتـ
سليمـــه شـــق عليـــه

خفيت حـــالى عليهـــم
وهى بالفقـــر جليـــة

ما دروا انى لـــرامى الـ
ـفقر ما زلت رميـــة

فأتوا يبغون عنـــدى
ما يدى منـــــه خليه

ما رأى الفـــلس مقـــامـــا
مســـتطابا فى يديـــه

فهـــو يأتينى ولـــكن
ريثما يمضى لطيـــه

لو ترى حالى لرقت
منـــك لى النفس السريه

ولهزتك لاسعادى وعـو
نى الأريحيـــــــه

قرعـة الجـابى لبـابى
غـادرت نفسى شجيه

واثقـا أن جيـوبى
ليس فيهـن خبيـه

خائفـا أن اعتـذارى
منـه لا يثنى أبيـه

فتململت كمـا تفعـل
فى الرمضـاء حيـه

وقد اسـتطاع طول القصـائد لديه أن يمكنـه من استقصاء المعـانى واكمـال ما يريد اكمـاله من الأفكار ولا نحب ان ننهى الحديث عنه قبل أن نروى بعض قصيدته فى العنز فهى من أروع قصائده يقول ناقلا عن العنز :

فو الله لو كنـا أناسـا وكنتم
بهـائم كنـا فيـكم نتقى الربا

ولم نجزكم مهما اتيتكم اساءة

الينا عليها مثل قولك أو ضربا

وقمنا لكم بالعذر عن كل هفوة

على مثلها تجزوننا الضرب والسبا

وكيف نجازيكم على السوء مثله

ولم ترزقوا فهمـا يميز ولا اربـا

ولم نرعكم الا مراعى خصـــبة

ولم نرض الا بالنمير لكم شربا

ونعتقـد أن صـقر الشبيب كان ممن يكثرون قراءة شـعر ابن الرومى فان لابن الرومى لمحـات فى الصـياغة وترتيب الجمل نجد كثيرا منها عند صقر الشبيب .

## شبيبة وكهولة

فى هذا الحديث نقرن بين الشبيبة والكهولة ، ونربط بين الشباب الناعم النضير والكهولة المغضنة اليابسة ، تعالوا نتحدث فى الشيوخ اذا طاف بهم طائف الحب ، فاذا هم يذوبون هوى ، ويدركهم سهد الحب ، وشغل المحب الواله .

فى رواية مصرع كليوباترا لأمير الشعراء أحمد شوقى أبيات ساقها الى زينون الشيخ المحب الواله يقول له فيها :

أفق زينون ، واصح من الغوانى
أبعد الشيب تخدعك النساء
وما كعمى الشيوخ اذا أحبوا
وليس وراء فتنتهم بلاء

ومنذ عدة سنوات زارنى فى مكتبى الشاعر محمد

طاهر الجبلاوى ، وكان قد أحيل الى معاش التقاعد لبلوغه السن القانونية وأدركه وهن الشيخوخة وفســدت أسنانه فخلعها جميعا واستبدل بها أســنانا صناعية براقة ، وجرى بنا الحديث فى الشعر فاستنشــدته وأخذ طاهر ينشــدنى شعراً من الغزل العنيف ، وأعنى بالغزل العنيف ما يمتلىء بالبكاء والنحيب والشــكوى من دلال المحب وجفــائه وصدوده وهجرانه وقلت للشيخ الشاعر المتصــابى يومئذ وكأنى أهدىء نفسه ألم تسمع قول شيخك القديم :

فان تســـألونى بالنساء فاننى
خبير بأدواء النســـاء طبيب

اذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس لـــه من ودهــن نصيب

ثم ألم تسمع قول شيخك ابن الرومى :

أقول وقد شابت شوانى وقوست
قنــاتى وأضحت كدنتى تتمدد

ولذت أحــاديثى الرجــال وأعرضت
سليمى وريــا عن حديثى ومهــدد

وبدل اعجاب الغـــواني تعجبا
فهن روان يعتبرن وصـــدد

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد

والا فما يبكيه منها ، وانها
لأرحب مما كان فيه وأرغد

اذا أبصر الدنيا استهل كأنه
بما سوف يلقى من أذاها يهدد

وللنفس حالات تظل كانما
تشاهد فيها كل غيب سيشهد

قال : بلى قد سمعت ووعيت وبعد هذا الكلام الطويل في الغزل والتغزل والصبا والكهولة أخرج أسنانه الصناعية من فمه لسبب لا أذكره فقلت له ضاحكا : مالك قد فض الله فاك فضحك وضحكت ثم انصرف •

وحين أردت أن أرسم له صورة كاريكاتورية بالشعر في ديواني « رسوم وشخصيات » لم تبارحني صورته مفضوض الفم يتغزل فقلت :

قد سمعنا لطاهر فسمعنا
نغما مشجى الترنم عذبا
يرصف المدح رائقا ويصوغ ال
وصف سهلا ويغزل العشق صبا
واصل بالقديم أطرف ما قال
وان كان وصله مستحبا
صور من حلى البلاغة غسر
وعلى غير فضله تتأبى
الوفى النقى فى الصحب لا نعرف
منه الا ودادا وقربى
ويراه العقاد خدن صفاء
ورفيقا ما كان ــ مذ كان ــ خبا
واذا استنشد القصيد شداه
ــ وهو شيخ ــ عشقا يذوب وحبا
عجبى للصديق قد فض فوه
وهو ما زال عاشقا يتصبى !

وفى هذا المجال ، قرأت تاريخ شاعر الألمان جيتى

فوجدناه وهو فى الرابعة والسبعين يخطب فتاة فى التاسعة عشرة فلا تتصوز هى أن يكون هذا الشيخ الفانى لها زوجا ويشتعل الحب فى جوانحه اشتعالا فيلح على الفتاة ان تقبل، وتمعن هى فى الرفض فيتشفع فيها بالأمير وكأنما يحقق بذلك قول أبى الطيب المتنبى :

عل الأمير يرى ذلى فيشفع لى

عند التى تركتنى فى الهوى مثلا

وتمعن الفتاة فى اصرارها على رفض هذه الخطبة العجيبة وتنضم أمها اليها وتقترح الفتاة أو يطلب هو أن تمنحه قبلتين اثنتين على سبيل التعزية وحسم الغرام ، فيكر راجعا من دارها مطوى النفس على الألم والخيبة .

ويعنف العقاد بجيتى لوما وتأنيبا حين يتحدث عن هذا الحب بين شيخ يجرى نحو الثمانين وفتاة شابة لم تبلغ العشرين ويقول انه قد نسى انها الربيع وانه الخريف فى جفافه ويبسه وشحوبه وحزنه .

لكن العقاد بعد هذا يقع فى قريب مما وقع فيه جيتى ، فيقع فى غرام فتاة صبية شابة تملك عليه أقطار

نفسه ويتحدث عن هذا الحب فيقول :

نفض النعاس فؤاده وصبا
وصحا فمال فهام فاضطربا
ونفى السآمة بعد ما بلغت
منه المشاش وعاود اللعبا
وجرى الذى ما كان يحسبه
يوما يكون وطالما حسبا
فى توبة الخمسين يشغله
وجه ويملأ صدره رغبا
ويظل يسأله وان وهبا
ويبيت يسمعه وان كذبا
ويعد منه الزور مأثره
أو لا يريد بزوره سببا
رجع الهوى عجبا له عجبا
لا طاغيا وافى ولا لجبا
لم أوله بابا ولا كنفا
عندى ، فكيف أطل واقتربا

ناديتــه حينـــا فراوغنى
فاليوم ناداني وما طلبـا
بينـا أقول صـددته حـذرا
طلع النهـــار اذا به انسربا
***
هذا الصغير على غرارته
يدرى النفق ويحسن الأدبا
وتراه فى العشرين مستبقا
وتراه فى الخمسـين مصطحبا
ويغيظ من كيـد وعـربدة
فاذا أغيظ شكا أو انتحبا
متمرسـا بالدهـر مختبرا
خيم القلوب محـــاذرا دربا
سأضـمه رفقا وأوسـعه
برا وأملك قلبـه حـدبا
ويقيم لا أخشى كنانته
السهم أخطأ والحسـام نبـا

أكذاك أم هو خـادعي أبدا
حتى اذا أمن الحمى انقلبـا

سـيان ما أنا حـاذر بغــد .
أغلبتـه بالكيـــد أم غلبـا

حـذرى أشد على من خدع
تشقى وتسعد بالمنى نوبا

فى كل يقظة خائف هـرم
ومع الخديعة لذة وصبا

ولعـل قراء العقـاد وهم يقـرءون ديوانيه « أعاصير مغرب » الذى نظمه وهو فى الثـانية والخمســين و « بعد الأعاصير » الذى نظمه بعد الستين يلاحظون أنه يتغزل بفتاة يسميها تارة « بنية » ويصغر بعض الكلمات فىالحديث اليها اشارة الى صغرها كأن يقول « ضمى ثغيرك يا بنية » وقد التفت العقاد وهو فى غمرة هذا الحب الى انه كان قد لام جيتى على غزاميه بعد الستين وبعد الثمانين فيكتب فى ديوان بعد الأعاصير مقطوعة بعنوان انتقام جيتى يقول فيها :

يا صديقى القديم اعتذارا
لك من سوء ظنتى وملامى
كنت أنعى عليك حبك فى
الستين بنت العشرين فاغفر ملامى
وأرانى على ملامك من قبل
لحب دون الثمانين دام
فانتظرنى فقد يجىء اعتذارى
لك طوعا فى مقبل الأيام
ان عشقنا كما عشقت وأوفينا
عليها انتقمت خير انتقام
ويقول مخاطبا كيوبيد :
كوبيد قد كثرت سهامك كثرة
تنسيك فى الهيجاء كل حساب
أسرفت فى فن الرماية خاسرا
أو رابحا من شقوة وعذاب
لم يعتصم منك المشيب ولا وقت
من طيش قوسك عزلة المحراب

أيصيبنى ســهم وعندك فى الحمى

ـب متعرض الأهداف ـ جيش شباب

دعنى فمـا أنا والغـــرام وانما

فتن الهوى لعب من الألعاب

انى لأبذل من سهامك حصتى

بذل السخاء لكل قلب صاب

ويروى الشيخ داود الأنطاكى المعـــروف بالأكمه صاحب التذكرة الطبية فى كتابه « تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشـــاق » أنه قـــرأ فى الشاهنامة الفارســية ما ترجمته ان ابرويز أحـــد ملوك الفــرس تزوج امرأة صغيرة بديعة الحسن وقد بلغ هو ثمانين ســنة فوجد بهـا وازداد عشقه لها وهى تظهر حبه وتخفى بغضــه وعلقت ولده واشتد ميلها اليه وان الملك دخل فرآهما على الحالة المنكرة فكادت نفســـه ان تزهق وعلم انه ان اظهر انه رآهمـا أمرت المـرأة ولده بقتله فرجع وأخـذ فى تدبير الحيلة فأخذ كتابا وســم ورقـه وجـلده بالذهب ورصعه بالجوهر وأودعه صندوقا وجاء به الى المرأة فقـال لهـا قد

علمت ما حوت يدى من الذخائر والنفائس ، غير انه لم يكن يعدل نفسى الا هذا الصـــندوق فاحتفظى به وعلم انها ستطلع عليه ولده ، فلما خلت به أخبرته القصة فقال : على بالصندوق فأحضرته ، ففضه فلم يجد الا الكتاب مطبـوقا فحاول فتحه فوجد ورقه معتلقا بعضه ببعض فجعـل يبل اصبعه من ريقـــه ويتصفح الأوراق ، فلعب السم فيه وعلم بالحيلة فأخذ السيف وخرج فضرب أباه فسقطا ميتين .

# مع الجاحظ

مع أبى عثمـان عمـرو بن بحـر الجاحظ نقف أو نجلس ، نتحدث عنه حينا ويتحدث هو الينـا حينا آخـر ولكم أن تستزيدوا من المعرفة به حتى ترتفع بيننا وبينـه الكلفة فيما نتحدث به عنه أو فيما يتحدث به الينا .

والجاحظ لقب لقب به لجحوظ عينيه أى بروزهمـا ولهذا يسمى أيضا بالحدقى لكبر أحداقه وهو لقب كان يتقبله برضـا ولا ينكره ، فمما روى عنـه أنه ذهب الى صديق فطرق بابه فقالت له جارية بالبيت : أقول لسيدى من أنت ؟ فقال لها : الجاحظ فأعادت اسمه كأنما تريد أن تتثبت فقالت : الجاحد ؟ فقال قولى الحدقى فقالت : أأقول الحلقى فبادرها الجاحظ بقوله : لا تقـولى شـيئا وتركهـا وانصرف حين أعيا عليها نطق اسميه جميعا ، وولد الجاحظ بالبصرة عام النصف من القرن الثانى الهجرى ، أو بعيد ذلك بقليل وكان معتزليا بل انه كان رأس فرقة من المعتزلة

سموا بالجاحظية نسبة اليه وذكر مؤرخوه انه تعلم الفارسية وحذقها وقرأ بها ونظر فى علوم الأوائل وكان قارئا نهما ، لم يفته كتاب ظهر فى عصره بل انه كان يكترى دكاكين الوراقين ـ أى باعة الكتب ـ ويبيت فيها ليلا للنظر والقراءة والاطلاع، وتحدث ثابت بن قرة الصابئى عنه فقال انه شيخ المتكلمين وخطيب المسلمين ومدرة المتقدمين والمتأخرين ان تكلم حاكى سحبان فى البلاغة وان ناظر ضارع النظام فى الجدل ، شيخ الأدب ولسان العرب كتبه رياض زاهره ورسائله أفنان مثمرة ، وقد عمل في ديوان الرسائل أيام المأمون بضعة أيام ثم استعفى فأعفى .

ونجىء الى شكله وقد ذكرنا جحوظ عينيه وبروز حدقتيهما فنجده دميم الخلقة جدا يكاد ينفر منه الناظر اليه ، وقد اتخذ هو من ذلك مادة للسخرية بنفسه قال الجاحظ ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده أى تعليمهم ـ فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى . وذكر ان امرأة لقيته يوما ببعض الطريق فقالت له : ان لى اليك حاجة وأريد أن تمشى معى فمشى معها الى أن أتت به الى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا

وانصرفت ، فسأل الجاحظ الصائغ عن قولها فقال الصائغ :
ان هذه المرأة أتت الى بفص وأمرتني ان انقش لها عليه
صورة شيطان فقلت لها يا ستى ما رأيت الشيطان فأتت بك
وقالت ما سمعت •

والسخرية عند الجاحظ ملكة متصلة بفطرته لاتفارقه
حتى فى أحرج المواقف وأقساها كان ـ كما يقول الرواة
ـ متصلا بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، ومنقطعا
اليه ومنحرفا عن احمد بن أبى دؤاد ، لما كان بينه وبين
الزيات من التباغض ، فلما أوقع ابن أبى دواد بالزيات
وقبض عليه هرب الجاحظ فقيل له : لم هربت ؟ فقال
خفت أن أكون ثانى اثنين اذ هما فى التنور ، يشير الى
التنور الذى صنعه ابن الزيات وجعل فيه مسامير ليعذب به
خصومه فعذب هو فيه حتى مات •

وقد تولى الجاحظ الوظائف العامة كما قلنا بضعة
أيام ، ولعله كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة ـ كان
يفضل أن يعيش حرا من قلمه وان يسن هذه السنة الطيبة
لفئة قليلة من الكتاب عاشت بعده بما يقارب قرنا من
الزمان ، ونقول انها السنة التى انضجته وخرجته كاتبا

رفيع المكانة بعيد الصيت ، وهى نفسها السنة التي خرجت المازنى والعقاد بعد ذلك بعدة قرون .

وكان الجاحظ حتى فى أحرج المواقف لا ينسى ملكة السخرية عنده كما قلنا وكذلك كان لا ينسى بلاغته وفنه الانشائى البديع وانظر اليه وقد أتوا به مكبلا بالحديد الى مجلس ابن أبى دؤاد القاضى الذى نكب ابن عبد الملك الزيات ، فقال له ابن أبى دؤاد : والله ما علمتك الا متناسيا للنعمة كفورا للصنيعة معددا للمساوى ، وما فتنى باستصلاحى لك ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ورداءة داخلتك وسوء اختيارك وتغالب طبعك ، فرد عليه الجاحظ ، وكان ابن أبى دؤاد أديبا ذواقة تأسره البلاغة ويفتنه جمال البيان ـ قال الجاحظ :

خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن أحسن فى الأحدوثة عنك من أن أحسن فتسىء ، وان تعفو عنى فى قدرتك ، أجمل من الانتقام منى ، وقد أعجبه الرد فقال : قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيك النفاق

والكفر وما تأويل هذه الآية ( وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد ) قال الجاحظ : تلاوتها تأويلها أعز الله القاضى فأمر القاضى بحداد ليفك عنه .

« والبيان والتبيين » أشهر كتب الجاحظ ، وان كان له من الكتب الكثير المشهور وهو دائرة معارف أدبية عربية واسعة وقد قلنا ان الجاحظ قد حذق الفارسية ونقول هنا انه روى كثيرا من الشعر الذى تدخله كلمات فارسية فى الجزء الأول من البيان حين قال : وقد يتملح الأعرابى بأن يدخل فى شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العمانى للرشيد فى قصيدته التى مدحه فيها :

من يلفه من بطل مسرند
فى زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه والكرد

يعنى العنق ، ويقول فيه أيضا :

لما هوى بين غياض الأسد

وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر « أب سرد »

ولكنه لم يشرح لنا كلمة اب سرد هذه كما شرح فى الفقرة الأولى •

بل انه روى لابن مفرغ الحميرى الشاعر العربى المشهور شعرا لم نفهم من سطور ثلاثة منه الا ثلاث كلمات عربية فحسب •

ويقول الدكتور محمد نبيه حجاب فى كتاب ممتع له عن بلاغة الكتاب فى العصر العباسى «ان مدرسة التحليل والتفريع والاستقصاء وهى المدرسة الجاحظية لم تستطع المدارس التالية لها أن تطغى عليها أو تطوى صفحاتها بل كانت تسايرها زمنا وتكاد تغمرها ثم تنحسر عنها حتى فى عصرنا الحاضر الذى مل السجع وألغاز البديع وساد فيه الأسلوب المرسل لم تتوقف لها موجة ، تلمحها فى التوازن والازدواج عند الرافعى والزيات ، والترديد والتكرار عند طه حسين والتحليل والتعليل عند العقاد والفكاهة والسخرية عند الشيخ عبد العزيز البشرى »

وكان بديع الزمان الهمزانى معجبا بنثر الجاحظ ـ دون شعره ـ أشد الاعجاب ألا ترى كيف سمى باسمه احدى مقاماته ، وهى المقامة الخامسة عشرة الجاحظية التى يقول فيها :

« وأخذنا فى وصف الجاحظ ونسبه وحسن سننه فى الفصاحة وسننه فيما عرفناه » .

ويقول فيها :

« ان الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ولم يزر كلامه بشعره فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ، قلنا لا ، قال فهلموا الى كلامه فهو بعيد الاشارات قليل الاستعارات قريب العبارات » .

وتذكرنا قلة الاستعارات هذه بحديث جرى فى ندوة ببيت الزعيم المصرى سعد زغلول جمع بين عباس العقاد ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وذكر أدب مصطفى صادق الرافعى فقال سعد : اننى أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فاذا هى جمل مفهومة لا بأس بها

في الصياغة ولكنى أتتبع هذه الجمل الى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ولا أعرف مكان احداها مما تقدمها أو جاء بعدها فلعل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق ولا يبيعون بالجملة •

وتذاكر الحاضرون فذكروا أن هذا عيب كثرة الاستعارات وهنا قال العقاد ان الاستعارة ما برحت دليل الفاقة فى المال وفى اللغة !

وهكذا تركنا الحديث عن الجاحظ واستطردنا الى سعد زغلول ولطفى المنفلوطى والعقاد والرافعى ولعل الجاحظ يغفر لنا فلم نأخذ فى ذاك الا بمذهبه فى الاستطراد •

ونعود الى الجاحظ فنذكر له رسالة التربيع والتدوير التى كانت مع كتابه البيان والتبيين سببا لشهرة الجاحظ فى الاندلس وتعلق الناس بأدبه وهى رسالة طويلة سخر فيها الجاحظ سخرية لاذعة من رجل اسمه احمد بن عبد الوهاب الذى كان يزاحم الجاحظ فى معروف ابن عبد الملك الزيات ، وعلى قدر ما كان الجاحظ دميما قبيحا بشعا ـ كما قال عن نفسه ـ كان خصمه أنيقا متجملا وهذه الرسالة نمط فريد فى السخرية والتهكم مع فيض زاخر من

الترادف الذى يدل على سخاء اللغة وتملك الكاتب ناصيتها
كان يقول لابن عبد الوهاب :

« وكيف أصبحت وما على ظهـرها خـود الا وهى تتعثر باسمك ولاقينه الا وهى تتغنى بمدحك ولا فتـاة الا وهى تشكو تبـاريح حبك ولا محجـوبة الا وهى تثقب الخروق لمرك ولا عجوز الا وهى تدعو لك ولا غيور الا وقد شقى بك » .

# من عبث الصبا

ان أنس لا أنس يوما من أيام الصبا ، ألف القدر فيه تمثيلية قصيرة وكنت ـ مع الأسف ـ واحدا من أبطـــال هذه التمثيلية وأقول مع الأسف لأسباب سيعلمها القراء الكرام بعد حين .

الوقت بعد صلاة العصر بقليل، وبيت الشاعر المعروف السيد حسن القاياتى عضو مجلس النواب فى ذلك الحين والكائن بعطفة السكرية بالقرب من بوابة المتـولى مفتوح للزائرين من الأدباء والشعراء وشداة الأدب والشعر وبين الحاضرين الشاعران الشـــابان أ.م و ط.أ ومؤلف هذا الكتاب والحديث فى الأدب والشعر والفكاهة طرفة من هنا وطرفة من هنـــاك ثم ينهض الثـــالوث الشاب للانصراف ويودعهم الحاضرون ويمضى الثالوث فى سبيله عابرا بوابة المتولى ، المعروفة وتذكرها كتب التاريخ باسم باب زويلة ووراءها شارع اسمه تحت الربع و أ.م يأبى أن يغادر

ميدان تحت الربع انتظارا لبائع عرقسوس يمر من هناك في مثل هذا الوقت من كل يوم ويضرب بصنجاته ضربا موقعا يلذ السامعين ، وهو بين توقيعه ينادى على العرقسوس نداء ملحنا بصوت رخيم ويتغير النداء على البضاعة بين كل دقة وأخرى من دقات الصنجات ، والرجل يلبس ملابس مزخرفة تزدان بقطع من النحاس الأصفر اللامع ويربط الى وسطه جرة من الفخار تسد فوهتها بعض الأزهار الجميلة ، ويشد حول وسطه حزام فيه وعاء من النحاس يضع فيه الأكواب وبيده كما قلت الصنجات وباليد الأخرى يحمل ابريقا من النحاس الأصفر اللامع ، يغسل منه الكوب بعد كل استعمال وكان أ٠م معجبا بهذا الرجل العجيب يصغى اليه فى تأثر واعجاب وانتظرنا الرجل حتى مر بنا ، ووقفنا نتأمله ونعجب بغنائه وضربه ولكنه ظن أننا نهزأ به ، أو ظن أننا غير معجبين به أو ببضاعته فألقى علينا بعض الكلمات النابية القاسية وصديقنا الشاعر أ٠م كان ولا يزال عصبى المزاج ضيق الحوصلة ـ كما يقولون عندنا فى مصر ـ فرد على الرجل بأنبى وأقسى مما قال وكانت معركة فضها شاعرنا بأن وثب على الجرة فكسرها

وفاض شراب العرقسوس على الأرض والنـــاس ينظرون ولعل بعضهم كان يقول فى نفسه :

كسر الجـرة عمـــــدا
وســـقى الأرض شرابا

قلت والخمــــرة دينى
ليتنى كنت تـــــرابا

وخاف الرجل المسكين ألا يستطيع أن يحصــل من أ•م وحده ـ وهو الذى تشاجر وهو الذى كسر ـ على ثمن ما انكسر وما سال من الشراب فأمسك بتلابيبنا نحن الثلاثة وصاح بواحد من رجال الشرطة فاقتادنا الى قسـم الشرطة القريب من المكان ووقفنا نحن الثلاثة أمام الضابط المختص ، ولم يصدق الضابط اننا نحن الثلاثة قد كسرنا الجرة مجتمعين ، ونبت عن الجميع فأبنت له الموضـــوع ، وشرحت له القصة من أولها حتى ساعة مثولنا أمامه متهمين بكسر الجرة واســالة الشراب على الأرض وكان الضابط لطيفا جدا ويظهر أنه كان يقرأ الصحف وله بعض الاهتمام بصحائف الآداب والفنون فيها فسأل الرجــل عما يطلب

ثمنا للجرة وللشراب فقال انه لن يتغالى فى طلبه ، وسيطلب فقط خمسة وسبعين قرشا رحمة بهؤلاء المساكين وأشار الينا وكنا فى ذلك الحين طلبة بكلية دار العــلوم والوقت آخر الشهر والجيوب خاوية وتصنعنا التفتيش فى جيوبنا ثم أعلنا أسفنا اذ لم نجد فيها هذا المبلغ الضخم !

وقال الضابط انه سينوب عنا فى الدفع شريطة أن نحضر له المبلغ فى أقرب فرصة وسيطلق سراح اثنين منا ويستبقى ذلك الذى كسر الجرة وأسال الشراب ، وعلى اللذين أطلق سراحهما أن يحضرا له المبلغ فى سرعة حتى يفكا أسر صديقهما المحتجز رهينة لخمسة وسبعين قرشا ».

وخرجنا من قسم الشرطة ولم نجد أمامنا الا أن نعود الى منزل الشيخ القاياتى لعلنا نجد لديه هــذه الخمسة والسبعين قرشا فذهبت اليه ومعى ط.أ. ودخلنا فاستغرب الحاضرون عودتنا السريعة ، وليس معنا زميلنا وتصنع ط.أ الحزن فسأله القاياتى ما بك ؟ قال : لقد وقعنا فى مشــكلة عويصة ، وقص عليه القصة وأغرق الحاضرون فى الضحك حين عرفوا أن أخانا محتجز فى قسم الشرطة رهنا لخمسة

وسبعين قرشا وتفضل الشيخ حسن القاياتى فمد يده بالمبلغ الى فكانت يد ط أسرع الى المبلغ من يدى وخرجنا قاصدين قسم الشرطة نفك أسر صديقنا المحبوس ، وما كدنا نعبر بوابة المتولى حتى رأى ط سيارة عامة آتية بسرعة فتعلق بها فى خفة وسرعة وأخرج لسـانه لى ، وصـاح بأعلى صوته : تصرف لاخراج زميلك أما المبلغ فانى فى أمس الحاجة اليه ... ولم أجد مفرا من الاتجاه الى بيتى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، وأحاول فى الصباح حل هذه المشكلة !

ومرت الليلة على أ٠م فى سجن قسـم الشرطة ، سميرا لمن اتهم بسرقة حلة أو نشل حافظـة واستضافه أحدهم على عشاء كان معه ، وفى الصباح لم يجد أ٠م مفرا من التصرف فاتصل بصديقنا المرحوم الدكتور ابراهيم ناجى واستغاث به ، فحضر ناجى الى قسـم الشرطة على الفور ، وفك أسره .

هذه هى التمثيلية كمـا وقعت ، لكن بعض الأدباء أحبوا أن يمازحونى مزاحا ثقيلا فنشروا فى احدى الصحف قصة كسر جرة العرقسوس ــ لا كما وقعت فى الطبيعة ــ

وانما بتغيير طفيف ولكنه خطير اذ وضعونى بدلا من أ٠م فى القصة ، فأنا الذى كسرت ، وأنا الذى حللت السجن ضيفا وأن الدكتور ابراهيم ناجى قد فك وثاقى أنا لا وثاقه ونشرت القصة كما أرادوها لا كالذى كان من أمرها ولم يكتفوا بذلك ، فأضافوا حلقة الى القصة تمثل قصة جديدة اذ أرسلوا عددا أو عددين من نسخ المجلة التى نشرتها الى خطيبتى حتى تعرف زوجها المنتظر على حقيقته وانتظروا طبعا ما يحدث من النتائج بعد هذا الذى فعلوه لكننى سارعت فكتبت الى المجلة تصحيحا لما روته من القصة ، وسألت الدكتور ناجى رحمه الله أن يؤدى الشهادة لله ، فكتب الى المجلة يعلن انه ذهب بنفسه الى قسم الشرطة وانه أخرج أ٠م من الحبس لا أحدا سواه ٠ وسكت رواة القصة عن التعقيب والكلام ٠

وهذه قصة من قصص الصبا ، وقعت فى النصف الأول من ثلاثينات هذا القرن ٠

## شعراء يتهمون ويحاكمون

مع بعض الشعراء حين أوقفهم شعرهم فى أقفـــاص الاتهام والمحاكمة نقف ومحاكمة الشاعر على ما يقوله من شعر شيء ـ ولا شك ـ طريف لأنه يبرز أثر الشعر فى توجيه الآراء أما الشـــعراء الأقدمون فقـــد حفلت كتب التواريخ والطرائف بأسماء كثير منهم ، ومنهم ابن مفـرغ الذى تحدثنا عنه فى بعض هذه الحلقات ، ومنهم النميرى الذى تغزل بزينب أخت الحجاج ، بقوله :

ولما رأت ركب النميرى أعرضت

وكن من ان يلقينه حذرات

وأمسك به الحجاج ، وسأله : مم كان يتألف ركبك الذى رأته فأعرضت عنه حذرا فأسعفته سرعة بديهته أن يقول : لقد كان يتألف منى ومن حمار هزيل فأضـــحك الحجاج ورققت هذه الفكاهة الخفيفة هذا القلب القـــاسى الغليظ فأطلقه وعفا عنه .

ومنهم المنذر بن المغيرة الذى قبض عليه رجال المأمون فى جوف الليل وهو على قبور بعض البرامكة ينشد :

ولما رأيت السيف جندل جعفرا
ونادى مناد للخليفة فى يحيى !

بكيت على الدنيا وزاد تأسفى
عليهم وقلت : الآن لا تنفع الدنيا !

وأخذوه الى المأمون فاحتج لديه بأن للبرامكة فى عنقه ديونا يجب أن يفى لهم بها . فعفا عنه ومنهم ذلك الشاعر اليمنى الذى كان يعيش فى القاهرة تحت ظل الفاطميين وهو عمارة بن على الحكمى الذى رثا دولة الفاطميين رثاء بليغا مؤثرا منه قوله :

رميت يادهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور فان
قدرت من عثرات الدهر فاستقل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتنا فى أكرم الدول

وعز عليه زوال الفاطميين واتهمه الأيوبيون بالتدبير ضدهم ، وهو لا يملك غير هذه الأداة الخالدة بين يديه : الشعر ونسبوا اليه أنه قال :

قد كان أول هذا الدين من رجل

سعى الى أن دعوه سيد الأمم

ثم أولوه عليه بما لم يرد ، وأضيف الى هذا كله اتهامه بالتآمر مع ثمانية من الفقهاء والأعيان فحاكمه صلاح الدين بين من حاكم من هؤلاء المتآمرين ، فأقر بما قال وكأنه لا يرى فيه شيئا غريبا ، وشنق بعد محاكمة قصيرة في اليوم الثانى من شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة من الهجرة .

واذا تركنا القديم الى الحديث وجدنا كثيرا من الشعراء قد وقفوا فى أقفاص الاتهام وساحات المحاكمة وأقرب المحاكمات الى الأذهان محاكمة الشاعر عبد الحليم المصرى ، الذى كان قد هجا الخديو عباس الثانى وهجا معه شاعره أحمد شوقى وبدأ المصرى حياته ضابطا فى جيش مصر بالسودان وكان كثير التأسى بحافظ ، فى

شعره والقائه جميعا وأدركه ما أدرك «حافظ» من الطرد من الجيش ثم لما لبث أن التحق بإحدى الوظائف فى ديوان الأوقاف ، ولما رأى أن أمر الشهرة والمال والمجد معقود لأحمد شوقى تودد اليه ومدحه بمثل قوله :

ذلت آية البـــلاغة فاغتدت
تمشى بطرسك مشية المتـدلل

فاذا فخرت بها فان محمـــدا
قد كان يفخر بالكتاب المنــزل

قد جاء بالمنثور آخر مرســـل
وأتيت بالمنظـوم أول مرسل

وهو شعر فارغ لأنه يعتمد على المبالغات السخيفـــة والمقابلات المصنوعة . ووجدت الأبيات صدى عند شوقى الذى كان يحب المدح جدا ، فأغـــرى ذلك عبـد الحليم المصرى ، فتطلع الى ما هـو أكبر من ذلك عند شـــوقى وقال له :

قربتنى حتى اذا استوزرتنى
أكبرت منزلتى بصدر المحفل

لكن الدسائس ما زالت بختي استطاعت أن تغضب عليه شوقي ، فجفاه وازور عنه جانبا فهجاه بقصيدة شديدة بدأها بالغزل على عادة جيله فقال :

بالأعين اقتلن لا بالمشرفيات
السود لا البيض فى شن الاغارات
نادى الهوى عن يمينى فالتفت فلم
أجد سوى فاتك حلو العبارات

ثم دخل فى الموضوع وقال :

ما للخصيب يغالى بابن هانئه
ما أعرف المين الا فى المغالاة
يد بعارفة الاحسان يصرفها
اليه كانت سبيلا للغوايات
أشاعر النيل دون الخلق يشربه
بينا يشق الصدى تلك المرارات
رأى الوشايات من نوع الخيال فلم
يزج الخيال الى غير الوشايات
ليدع الملك أن يرضى الخصيب فما
يبقى عليه سواه فى اللذاذات

ما شرعه صح أو آياته وضحت
الشرع شرعى والآيات آياتى
ان العفيف الذى يقضى صدى وطوى
وكفه تشتكى حمل الأمانات
وأخلق الناس بالدنيا أخو أدب
ان يعدم المال يسرف فى المروءات
الى الخصيب تركت النيل عن رغب
يسخر الناس فى حمل الجبايات
نعم الأمين على مصر وساحتها
لو يؤمن الذئب فى المرعى على الشاة
قل للخصيب اذا ما جئت سدته
عليك بالدين فالدنيا لميقات

ومنها :

رميت من شعراء الملك طائفة
فى لفحة العيش فارفق بالرميات
فى الله ابكار أشعارى التى وئدت
فى شرع مدحك بعد الجاهليات

فاجلس على عرش فرعون أخيك وقل
أنــا الاله ولى حق العبـادات

النيل من فضتى والأرض من ذهبى
والشمس نورى والآفاق داراتى
واهنأ بمصر ومن فيها فقد رغبت
عنك النفوس التى ظلت أبيات

ولم يكتف الشاعر الغاضب بنظم هذه القصيدة بل انه أرســل بها الى صــحيفة الأهرام وزعم فى مقــدمة كتبها لها أنه رأى مسلم بن الوليد فى المنام وأخبره أن الرشيد أجازه عليها ورجاه أن ينشرها فى مصر ، وفعــلا نشرت الأهرام القصيدة فى عددها الصادر فى الثانى عشر من يونيو ( حزيران ) سنة ألف وتسعمائة واثنتى عشرة فأحدثت دويا هائلا فى الأوساط الأدبية والسياسية وكتبت صحيفة المؤيد بعد ذلك بأربعة أيام تقول ان الخصيب ماهو الا خديو مصر عباس الثانى وان ابن هانىء ليس الا أحمد شوقى فخشيت صحيفة الأهرام عاقبة الأمر ونشرت فى عدد السابع عشر من يونيو من تلك السنة كلمة تستعيذ

بالله فيها مما يتقول المتقولون ، وأعلنت براءتها من الشعر وشاعره لو أن مراده كان هذا ....

وقامت القيامة وانشعب عقاب الشاعر شعبتين ، فأحيل الى النيابة فمحكمة الجنايات وطرد من وظيفته في وزارة الأوقاف ، ويقف الشاعر أمام المحكمة ويصدر الحكم عليه في السابع عشر من أغسطس ( آب ) من العام نفسه بحبسه ثلاثة أشهر حيث قد ثبت للمحكمة أن الخصيب وابن هانيء اسمان مستعاران للخديو ولأحمد شوقي واستأنف الشاعر الحكم وقد أثار الغضب في نفوس الناس بما اتسم به من قسوة ومن مصادرة لحرية الرأي . فتدخل بعض الوسطاء في الأمر ، ونصحوا الأمير بأنه يجب ألا يسمح بأن حكما قضائيا صادرا من جهة قضائية عليا يسجل أن شاعرا من عصره هاجمه وهجاه فاقتنع الأمير ، وجاء يوم الاستئناف فصدر الحكم ببراءته . وذلك قياسا على حالة مماثلة سبقت هذه الحالة بقليل ، حين كتب العقاد مقالا عنيفا هاجم فيه الخديو لأنه تلكأ في اصلاح الأزهر بعد وفاة الامام محمد عبده ، ورئي تقديمه الى محكمة

الجنايات لمحاكمته ولكن مستشارى الخديو رأوا أن يطوى الأمر وأن يعاقب عليه العقاد عقابا مستخفيا بعد حين.

وثمة قضية أخرى حبس بسببها المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى ، من باب الظنة لا من باب اليقين فقد كان الخديو عباس يقضى الصيف فى القسطنطينية ويوم عودته نشرت قصيدة تقول :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وحكم وان طال المدى سيبيد
رحلت ووجه الناس بالبشر باسم
وعدت وحزن فى القلوب شديد
علام التهانى هل هناك مآثر
فتحمد ام معنى لديك حميد
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
مصوب سهم بالبلاء سديد

كان ذلك فى سنة ألف وثمانمائة وتسع وتسعين بعد تولى عباس الثانى الحكم بقليل واتهم السيد محمد توفيق

البكرى ، لما كان بينه وبين عباس من الخلاف كما اتهم على الغاياتى ، واتهم بصفة أصلية ناشر القصيدة أحمد فؤاد المعروف بأحمد فؤاد الصاعقة ، وانتهى الأمر .

أما السبب فى حشر أحمد فؤاد الصاعقة فى الأمر فاليه يشير العقاد فى كتابه « رجال — عرفتهم » بقوله انه ذلك الكتاب الذى كتب به الى الخديو مباشرة بعد أن انقطعت عنه المعونة السرية التى كان يأخذها كل شهر من الديوان الخديوى :

أن كان بعضهم يظفر بعطايا الأمير لأنه ينظم فهو حقيق بهذه العطايا لأنه ينثر وان كان لعيب من العيوب فهو — أى فؤاد الصاعقة — يضم ازاره بحمد الله على تلك العيوب وعلى ما هو شر منها وزيادة عليها ... ثم يمضى فى تعداد عيوبه غير مقتصد فيها كأنها عيوب ضحية من ضحاياه » .

## حفلة ازاحة الجبة

نسمر الليلة مع سهرة من سهرات رمضان قضيناها منذ خمس وثلاثين سنة فى مقهى باب الخلق بالقرب من دار الكتب بالقاهرة فى حفلة سميناها « حفلة ازاحة الجبة» عن جسد الأستاذ الشاعر م.م الذى أراد أن يتحول الى الزى الافرنجى بعد أن أقام على الزى العربى زمنا طويلا فاقتنصناها فرصة لاقامة حفلة من غرائب الحفلات التى كنا نقيمها فى رمضانات تلك الأيام ، وكانت كلها ـ فى الحقيقة غرائب .

وطلب المحتفل به بادىء الأمر أن يكون الحفل مختصرا ومقتصرا على المدعوين من الأدباء والشعراء ومحبى الأدب والشعر ، ووقعنا فى حيرة كيف نقيم حفلا فى مقهى عام ثم نشترط ألا يحضره غير الذين توجه اليهم الدعوات .

واستقر الرأى أخيرا على أن يقام الحفل بعد منتصف

الليل ، وبعد أن يخلو المقهى من مرتاديه المعتادين وغير المعتادين ، وطبعت بطاقات الدعوة هكذا « تتشرف لجنة الاحتفال بازاحة الجبة عن جسد الأستاذ الشاعر الشيخ أفندى م٠م بدعوة حضرتكم للحضور والمشاركة فى رفع الجبة وذلك بعد منتصف الليلة الواقعة بين يومى الخميس والجمعة الموافقين كذا من رمضان والعاقبة عندكم فى المسرات » ٠

وفى الموعد المحدد توافد المدعوون على المقهى وكانوا فى الحقيقة من صفوة القوم وعلية الأدباء والشعراء ومحبى الأدب والشعر ، وأعد حبل معلق فى بكرات بسقف المقهى وفى آخره خطاف حديدى يرفع ما يمسكان به عند جذب الحبل ، وجاء المحتفل به فى زيين مختلفين أحدهما فوق الآخر فأما الزى التحتانى فبذلة أفرنجية أنيقة التفصيل يزين جيب صدرها منديل حريرى هفهاف ، ويتوسط رباط الرقبة دبوس أنيق لم يكن من الذهب ولكنه مطلى بقشرة من الذهب ، وأنا أعرف هذا لأن هـذا الدبوس وحده كان هدية لجنة الاحتفال الى المحتفل به ٠ وأما الزى الفوقانى فجبة قديمة فسخ لونها فتحول الى عدة ألوان ٠

ووقف م٠م تحت الحبل وكان بالحبـــــل خطـــافان ، وركب بكل كتف، من كتفى الجبة خطاف ثم ابتـدأ شـد الحبل ، وصاحبنا ينسلخ من جبته انسلاخا وسط تصفيق حاد جدا من جمهرة الحاضرين الذين وقع بعضـهم على الأرض من شدة الضحك ٠ حتى اذا تخلص من الجبـــة تخلصا تاما وعلت فى الفضاء فوق رءوس الحاضرين فارغة مما كان يملؤها منذ حين ابتدأت الحفلة المشهودة بكلمة من عريف الحفل الأستاذ الأديب « ع٠ش » الذى قال ان الأستاذ م٠م يتطور وانه بدأ الآن طورا جديدا من أطوار حياته وطلب من الحاضرين أن ينشدوا معه نشيد الحفـل الذى ألفه واحد من لجنة الاحتفال ولحنه واحـــد منهم أيضا ، والذى أذكر منه الآن :

مهدى مهدى مهدى مهدى

كنت الشيخ فصرت افندى

وتركت نشوقا وســـعوطا

وغدوت رقيقا كالورد

مهدى مهدى مهدى مهدى

اليــوم غدوت أفنـــديا

مفروق الشعر على الغره !

تحمل طربوشا « معووجا »

كفتاة قد حملت جره !

تمشى تتمايل بالقـــد

مهدى مهدى مهدى مهدى

ثم مضى الشعراء بعد ذلك ينشدون ما أعـــدوه من الشعر لهذه المناسبة السعيدة فسمعنا ما قاله الدكتور كامل أبو العينين ، ثم الأستاذ طه محمد حراز ثم أحمد مخيمر ثم العوضى الوكيل ثم طاهر أبو فاشا ؛ ثم كلمات من هلال أحمد شتا وعلى طلعت ، والمرحوم طه عبد الباقى سرور نعيم ؛ ولو كنا نمتلك مسجلا ، أو لو كانت المسجلات قـد اخترعت وذاعت لسجلنا هذا الاحتفال الذى أنهـاه آذان الفجر فى تلك الليلة الضاحكة ، وحاولت بعد سنوات أن أجمع ما قيل فى هذه الحفلة الضاحكة فلم أستطع وضاع منها ما كان يمكن أن يضاف الى تراث أدبنا الفكه الظريف لكننى مع هذا كددت الذهن وجريت وراء الأحياء فعثرت

على بعض قصيدة المحتفل به ، الأستاذ م•م التى استهلها بالغزل على عادة الأقدمين يقول :

يا قلب كالقبقاب جرجرك الجمال
فتارة تدعى وأخرى تزجـــــر
طورا برجل فهيمــة وعشية
فى رجل سلمى والزمان تجرجر
أومكرمى لُعنتم ! الله يكـــر
منى ويعـــرف قيمتى ويقـــدر

ومنها :

يا جبة شهدت ضـــلال شبيبتى
انى لأمنحك الصدود وأهجـر
لونت ألـــوانا فذلك أبيـــض
يقق وهذا فى الجوانب أخضر
واذا التفت الى ذرا أكمامهـــا
ألفيت أزرق بعد اذ هو أحمر
ما بدلتى خـــير ولـــكنى فتى
العصر يحكم خطوتى ويدبـــر

وكان مما قاله أحد الشعراء ولا أذكر اسمه الآن ولعله كان يلبس الزى العربى كما يبدو من أبياته الآتية :

ودعت عهــــدا تــولى
وجبـــة تتـدلى ....

أأنت حقـــا افنـدى
بين البـــرية أم لا ؟

فهل حذقت لغـات الـ
أقوام اســـما وفعـــلا

ام لا تـــزال مكبـــا
على ســعاد وليـــلى

وتســـتعيد الحـواشى
والشـــعر جدا وهـــزلا

وتقرأ النحـو والصـر
ف والعـــروض المحلى

فى ملـــزمات صــغار
تكاد فى اليـــد تبـــلى

لبست زيـــا جـديدا
فهل تبـــدلت عقـــلا !

وهـــل تبـــدلت روحا
وهـــل تغـــيرت فعلا

الـــزى ليس بشيء
فلا تحمـــله حمـــلا

فأنت شـــيخا أنيقـــا
أنقى وأســـمى وأحـلى

فلســـت أرشـق قـــدا
ولست أجمـــل شـكلا

لسوف ابقى على جبـــ
ـتى ودادا ووصـــلا

ولن أغـــير شـــيئا
حاشا ــ لمثـــلى ــ وكلا

ووقف هلال أحمد شتا يتلو علينا مقامة من مقـاماته تتضمن حوارا بين شيخ وأفندى وقد سألته أن يدلنى عليها أو على جزء منها فاعتذر بأنها ضاعت فى نقل متاعه وكتبه

من بيت الى بيت ولكنه ذكر منها هذا المستهل قال :

حدثنا محاور المجاور قال : ختمت القرآن العظيم فى العاشرة ، ونودى بالذهاب الى الأزهر للمجاورة فى مدينة القاهرة فمضيت الى الخياط والتمست لديه بحق المحبة، أن يسرع فيخيط لى جبة ، من الجوخ الأزرق الصافى الأنيق وأن يصنع لى قفطانا من آلاجة الحـــرير الرقيـــق ، حتى يلبسنى العلم كله حين ألبسها واتخذت عمامة ليملأنى الوقار كله حين أكبسها ولم أنس ثلث المسبحة الكهرمان لأذكر الله عليها كل أوان :

يا لابس الجبـــة والقفطـــان
من خير ما قد نسجت يـــدان
تخطـــر كالأميـر فى البستان
وقاصـــد الأزهر فى الركبان
مسبحا وحامل القـــرآن
دع عنك ذكر الغيد والغوانى
وأقصد الى البـــديع والبيـان

ولم يذكر هلال بعد ذلك من مقامته هذه شيئا ولعله يجدها أو يجددها فنستمتع بها .

## رثاء الحيوان

ذكرتني قصيدة ابن عنين في رثاء حمار له مات بالموصل ورويناها في حديث من هذه الأحاديث وفيها يقول : ـ

لا تبعدن تربة ضمت شمائله
ولا عدا جانبيها العارض الهطل
لقد حوت غير مكسال ولا رعش
ان قيد القود من دون السرى الكسل
قد كان ان سابقته الريح غادرها
كأن أخمصها بالشوك ـ ينتعل
لا عاجزا عند حمل المثقلات ولا
( يمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل)

ذكرتني هذه القصيدة الطريفة بحفلة طريفة أقامها أحد الأصدقاء لتأبين عجل نفق لصديقنا الشاعر الريفي

أحمد القرعيش ، منذ نحو ثلاثين سنة ، وقد وقف أحد الشعراء يلقى مرثيته للعجل الفقيد على لسان صاحبه أحمد القرعيش ، فقال :

يا باهر الذيل والقرون
أبكيك بالمدمع الهتون
حاذرت فيك المنون حتى
وقعت فى قبضة المنون
يا صاحبى فى خواء عيشى
ويا رفيقى ويا خدينى
غادرتنى دون ما وداع
ولست بالغادر الخئون
وكنت فى منزلى مصونا
واليوم غال الردى مصونى
زادت شجونى عليك حتى
أوشكت أقضى من الشجون

كم خرت فى منزلى خـوارا
في السمع أحلى من اللحون

وكنت ذخرى على الليـالى
بلحمك الـرائع السـمين

ولم أدورك فى السـواقى
ولا النواريج فى الجـرين

فأنت اسمى لدى قـدرا
من أن ترى موضع المهـين

عليـك أبكى بكاء حـر
راع لعهـد الوفاء أمـين

وهذا ما وعته الذاكرة من هذا الحفل ، الذى شارك فيه على ما أذكر نفر من الأدباء ممن ند ذكرهم عن ذاكرتى بعد هذا الزمن الطويل .

وأما وقد دخلنا فى مراثى ما لا يعقل من الحيـوان فاننا نذكر قصيدة امتلأت بذكرها كتب الأدب والتاريخ فى رثاء هر للشاعر أبى بكر بن العلاف أحـد ندماء الامام المعتضد بالله من شعراء القرن الثالث الهجرى ، ذكـروا

أن هذا الهر كان يدخل أبراج الحمام التى لجيران صاحبه ويأكل فراخها ، وكثر ذلك منه ، فأمسكه أصحابها فذبحوه فكانت هذه المرثية الفريدة وهى قصيدة طويلة جدا روى أكثرها ابن خلكان ، ومنها :

يا هر فارقتنـــا ولم تعـد
وكنت فينا بمنزل الولـــد
فكيف ننفك عن هـواك وقد
كنت لنا عـــدة من العدد
تطرد عنا الأذى وتحرســنا
بالغيب من حيـة ومن جرد
وتخـــرج الفأر من مكامنهـا
ما بين مفتوحها الى الســدد
يلقـــاك فى البيت منهم مدد
وأنت تلقاهم بلا مـــدد
لا عـدد كان منـك منفلتـــا
منهم ولا واحد من العـــدد
لا ترهب الصيف عند هاجـرة
ولا تهاب الشـــتاء فى الجمد

وكان يجرى ولا سـداء لهم
أمرك فى بيتنـا على سـدد

حتى اعتقـدت الأذى لجيرتنا
ولم تكن للأذى بمعتقـد

وحمت حول الردى بظلمهـم
ومن يحم حول حوضه يـرد

وكان قلبى عليـك مرتعدا
وأنت تنساب غـير مرتعـد

تدخل برج الحمـام متئدا
وتبلغ الفـرخ غـير متئـد

أطعمك الغى لحمهـا فرأى
قتلك أربابهـا من الرشـد

لم يرحموا صوتك الضعيف كما
لم ترث منها لصوتها الغـرد

أذاقك المـوت ربهن كمـا
أذقت أفـراخه يدا بيـد

عشت حريصـــا يقوده طمـع

ومت ذا قاتـــل بلا قـــود

ألم تخف وثبة الزمان كمـــا

وثبت فى البرج وثبة الاسـد

لا بارك الله فى الطعـــام اذا

كان هلاك النفوس فى المعـــد

كم دخلت لقمـــــة حشاشره

فأخرجت روحه من الجســـد

وذكرت بعض كتب الأدب أن القصـــيدة رمزية ، والمرثى فيها ليس هرا ولا كان هناك برج حمام ولا فراخ وانما كان للشاعر غلام ، عشق جارية لأحـــد جيرانه ، وتواترت أنباء تلاقيهما فى الخفاء ، فأمسك بهما مولى الجارية فقتلهما معا ، وسلخهما وحشى جلودهما تبنا .

وماتت ببغاء لأحد أصدقاء أحمد بن يوسف الكاتب وكان لصديقه هذا أخ لا يعجبه اسمه عبد الحميد فكتب أحمد بن يوسف يعزى صديقه فى ببغائه :

أنت تبقى ونحن طـــرا فداك

أحسن الله ذو الجلال عـزاكا

فلقد جل خطب دهـــر أتاكا
بمقـــادير أتلفت ببغـــاكا

عجبا للمنـــون كيف أتتها
وتخطت عبد الحميد أخاكـــا

كان عبد الحميد أصلح للمـو
ت من البيـــغا وأولى بذاكا

شملتنا المصـيبتان جميعـــا
فقدنا هـــذه ورؤيـة ذاكا

وذكر بعض النقاد أن المعنى مأخوذ من أبيات لابن الرومى ، يقول فيها :ـ

قل لأبى القـاسم المـــرزا
قابلك الدهـــر بالعجـــائب

مات لك ابن وكان زينـــا
وعاش ذو الشـين والمعـــايب

حياة هـــذا كمـــوت هذا
فلست تخـــلو من المصـــائب

وندنو من ختام هـــذا الحديث فنذكر قصـــيدتين

لشاعرين معاصرين مات لأحدهما خروف من أخرفة العيد كان مهدى اليه فكتب فيه أبياتا لطيفة بعنـــوان الخروف المنتحر ، ورد عليه صديقه الشاعر الثانى بتعزية لطيفة قال الأول وهو الشاعر محمد الأسمر :

ولم أزل مبتهجـــا منتظـــرا
قـــدومه مطبـــلا مزمرا
حتى علمت انه فجـــاءة
مات ولاقى حتفـــه مشمرا
وانه استعجل ما كان لـــه
ـ لو لم يمت ـ مهيئا مقـــدرا
من لامه فى أمـــره فاننى
عذرته والله فيمن عذرا
لمـــا أحس انه هـــدية
لشاعـــر فكر ثم انتحـــرا

وقال الثانى وهو الشاعر على الجندى :

فقدك الأحور السمين على العيد
بلاء طاشت لـــه الألبـــاب

ان تكن صابرا فلست تراني
صابرا ما توالت الأحقـــاب

وانتحابي عليه قرح جفني
وقليـــل لمثـــله الانتحـــاب

أين مني « الرقاق » في رقة الشو
ف اليـــه وأين مني الـــكباب

أين مني الشواء يملأ سـمعي
بنشيش تلـــذه الأعصـاب

يا لهـا أكلة حسبت لها الأيـا
م ضاعت وضاع فيها الحساب

كيف مات الخروف قل لي لم
يمسسه سقم ولا عداه شباب

أتراه تعجل الموت خوف الـــ
موت والخوف للنفوس تبـــاب

أم تراه قد كان صبا معنى
والصبـابات للردى أســـباب

قد قنعنا من الضـــحايا بديك

وقليل المقـــل ليس يعـــاب

وسلامى عليك لا بل ســـلامى

لثريد تحدى اليـــه الركاب

لو جمعت الاحزاب يوما عليه

لتناست أحقـــادها الاحزاب

واذا كانت هذه المراثى فكاهية ساخرة فثمة قصيدة فى رثاء الحيوان باكية حزينة تستجيش الدموع تلك هى قصيدة العقاد فى رثاء كلبه بيجو ، وكان له فى بيته المنعزل أو فى صومعته الهادئة أنيسا وصديقا ونكتفى بذكر المقطع الأول منها يقول العقاد :

حزنا على بيجو تفيض الدموع

حزنا على بيجو تهيج الضلوع

حزنا عليـــه جهد ما أستطيع

وان حزنا بعـــد هذا الولوع

والله يا بيجـو لحزن وجيع

## التصحيف والتحريف

التصحيف كما هو ظاهر مشتق من الصحيفة ، ومعناه وقوع الخطأ في قراءتها وأغرب مافي هذه المادة مما ورد في القاموس ان الصحفي هو من يخطيء في قراءة الصحيفة فلا يقرؤها على وجهها الصحيح ، أما التحريف فمشتق من الحرف والتحريف الميل ؛ ومنه القلم المحرف الذي يقطه من يبريه الى ناحية ؛ ويقول الشاعر القديم في وصف حصان :

كأن أذنيـــه اذا تشـــوفا
قادمة أو قلمــا محرفا ...

وتحريف الكلام تغييره بقراءته أو كتابته على غــير وجهه ؛ كأنك تغير منه حروفا تتغير بتغيرها معانيه وقد ورد في القرآن الكريم قول الله تعالى : ــ

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضـــعه

ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » .

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » .

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » .

ويقع التحريف والتصحيف كثيرا فى الكتب والصحف والمجلات ومازلت أذكر ذلك البيت الذى نشرته صحيفة الأهرام القاهرية منذ أكثر من ثلاثين سنة من قصيدة لى غزلية وقد أسقط منه جماع الحروف حرفا وكان أصل البيت هكذا :ـ

وحديث العيون أبلغ تأثيـ
ـرا فقولى كلامك العبقريا

لكن جماع الحروف أسقط القاف من الكلمة الأخيرة

وجعل ختام البيت « فقولى كلامك العبريا » فظن القراء أن الخطاب موجه الى فتاة يهودية تتكلم اللغة العبرية .

ومن التصحيف والتحريف ما يجعل المعنى الجديد بشعا ، من ذلك ما وقع في وصف مهرجان مبايعة أحمد شوقي بامارة الشعر سنة ألف وتسعمائة وسبع وعشرين وكان المعروف يومذاك أن نفرا من الأدباء على رأسهم العقاد والمازنى يعارضون فى هذه الامارة ، وجاء وصف المهرجان فى احدى الصحف فى اليوم التالى ومنه قصيدة حافظ ابراهيم وفيها هذا البيت :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

لكن جماع الحروف أبى الا أن يسقط القاف من كلمة الشرق فصار البيت هكذا :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا

وهذى وفود الشر قد بايعت معى

وظنها شوقى وبعض أصحابه دسيسة من العقاد والمازنى وكلاهما صحافى وله بالصحف صلات وثيقة .

ومن أطرف ما يروى فى هــذا المقـــام ، ما نشرته صحيفة كانت تصدر فى الثلاثينات من هذا القرن باسم صحيفة الوادى وكان يحررها الدكتور طه حسين وقد جاء فيها خبر يفيد أن نقابة العـــمال أوفدت بعض أعضائهـــا ليبلغوا دولة رئيس الوزراء تأييدهم له فجـــاء الخبر ان النقابة أوفدت بعض أعضائها ليلعنوا دولة رئيس الوزراء .

وحين أصدر الأستاذ الشيخ محمد الخضرى سلسلة كتبه فى التاريخ الاسلامى ، هز هذا النشاط الفـــكرى والثقافى احدى الصحف فأرادت أن تثنى على همة الشيخ الخضرى لكن جماع الحروف فى تلك الصحيفة أبى الا أن يجيء الثناء منصبا على عمة الشيخ الخضرى لا على همته لأنه جمع العين فى الحروف بدلا من الهاء فكان هذا الثناء العجيب !

وفى تركيب أعمدة احدى الصحف وقع شيء غريب جعل كثيرا من قراءتها يفغرون أفواههم من الدهشة فقد نشرت الصحيفة خبرين متجاورين فى ذيلى عامودين أما الأول فخبر زواج عروسين ختمتـه الصحيفة بالعبـــارة التقليدية « فندعو لهما بالسعادة والهناء والتـــوفيق » وأما

الثـانى فخبر سطو لصين على أحد المتاجـــر وختمته بهذه العبارة « وسيقا الى السجن جزاء ما ارتكبا » لكن مرتب الأعمدة فى الصحيفة وضع كلا من الخاتمتين مكان الأخرى فجاء ختام خبر الزواج بعد ذكر اسمى العروسين « وسيقا الى السجن جـزاء ما ارتكبا » وجاء ختـــام خبر اللصين « فندعو لهما بالسعادة والهناء والتوفيق » .

ومن هذا الباب ما روته احدى الصحف الأمريكيـة حديثا اذ ذكرت أنه سقط أحد السطور من مقالة عن فيلم سينمائى وسط خبر حول خطاب كان من المقرر أن يلقيه الرئيس الأمريكى وقد جاء الخبر فى الصحيفة كالآتى : يلقى الرئيس الأمريكى اليوم خطـــابا فى قاعة اجتماعات المدينة ، لكم هو مخيف كالأشباح ومزعج !

وفى مجلس المرحوم الأستاذ ابراهيم دسوقى أباظة باشا وقع الخلاف بينى وبين المرحوم كامل الكيلانى حـول سطر فى أحد كتب الجاحظ حين تحدث عن واحـــد من الأفذاذ فى الضرب والغناء فقال : « وكان أحد الناس فى صناعة الضرب » وقال الكيلانى انها بالذال « كان أحـــذ الناس فى صناعة الضرب » وكانت حجته أن كل واحد فى

الدنيا انما هو أحد الناس واذن فلا معنى لهذا الكلام وكانت خلاصة الرد عليه ان الكلام لا يؤخذ بمعناه الحرفى ، فأنت حين تقول فلان رجل لا تقصد هذا الخبر المجرد الذى يفيد مغايرته للأنثى ولكنك تريد انه يتصف بما فى الرجولة الحق من صفات وذلك علاوة على أن الحذذ معناه السرعة وبه يوصف الحصان فيقال حصان أحذ أى خفيف سريع ويوصف السيف به كذلك . فيقال سيف أحذ ولا معنى لأن يوصـــــف المغنى بالسرعة فهى ليست مزية من مزايا صناعة الضرب والطرب . ولم يكن الأمر الا تصحيفا بنقط الدال .

وروى لى المرحوم الأستاذ أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام القاهرية الأسبق ، وكان مولعا بتسـقط الأخطاء المطبعية الصحفية أن صحيفة محلية كانت تصـــدر باللغة الفرنسية بالقـــاهرة نشرت خبرا عن منـــح أحد المواطنين وسام اللجيون دونير « أى وسام الشرف » من الحكومة الفرنسية ، وشفعته بالتهنئة المناسبة لكنهـــا غيرت بعض الحروف الفرنسية من اسم الوسام فجعلته « ليجيـــون

دورور » فأصبح وساما للشناعة والفظاعة بعد أن كان وساما للشرف والفخار .

ومن كثرة ما وقع في كتب التراث العربى القديم من التصحيف والتحريف نشأت صناعة التحقيق وذلك للرجوع بالنص المحرف أو المصحف الى أصله الحق ، أو الى أقرب ما يكون الى أصله الحق ويقتضى ذلك الاطلاع على كل النسخ الموجودة ، المخوط منها والمطبوع واتخاذ احداها عمدة أو أصلا باعتبارها فى نظر المحقق - أكثر النسخ الموجودة صحة أو أقربها الى الأصل ثم تستعرض اختلافات النسخ ، ويرجح المحقق وجها من وجوهها . ولا جدال فى أنها صناعة مرهقة مضنية وتقتضى حضور ذهن وسعة اطلاع وحسن تأت فى التوفيق بين النصوص المختلفة .

ونظن أن من بين أسباب التصحيف والتحريف أن الكتابة العربية القديمة كانت حتى عصر الحجاج بن يوسف الثقفى بلا نقط، ولا ضبط بالشكل، ذكر ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان » عند ترجمته للحجاج بن يوسف الثقفى قال : وحكى أبو أحمد

العسكرى فى كتاب « التصحيف » أن الناس غبروا يقرءون فى مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه نيفا وأربعين سنة الى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف الى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادا وأزواجا وخالف بين أماكنها فغَبَرَ الناس بذلك زمانا لايكتبون الا منقوط، فكان فى استعمال النقط أيضا يقع التصحيف فأحدثوا الاعجام فاذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة ولم توف حقوقها اعترى التصحيف فالتمسوا حيلة فلم يقدروا فيها الا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين .

أما الرجل الذى اهتم بأن يضع كتابا فى التصحيف « فهو أحد علماء القرن الرابع الهجرى وهو أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى » وكان رجلا ذا ثقافة فارسية وعربية فقد ألف كتابا فى « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم » وهو خال أبى هلال العسكرى عالم النقد والبلاغة المعروف وأستاذه .

واذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد وكلت مجلة

الأزهر يوما الى الشيخ محب الدين الخطيب والى مؤلف هذا الكتاب أن يختارا لها مصححا لتجارب طبعها فاتفقا على أن يكون امتحانه فيما سيعمل فيه وكان الامتحان بالفصل بضعة أسطر من كلمات مجموعة بحروف المطبعة وفيها تصحيف كثير يباعد بينها وبين أصلها كثيرا أو قليلا وكان المطلوب من المتقدمين للامتحان أن يصححوا هذه الكلمات ويعيدوها الى أصلها أو الى وضع أقرب ما يكون الى هذا الأصل برعاية معناها العام وبرعاية معانيها كلمة كلمة وعبارة عبارة •

# فنون وشجون

تعالوا نتحدث فى فنون من الحديث وشجون من القول ، نتفلسف حينا ونترامى خلف النحاة والنقاد والرواة حينا آخر ، ونبدأ بقول ربيعة البرقى :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى
يزيد سليم والأغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال ، والفتى
فتى الازد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الازدى اتلاف ما له
وهم الفتى القيسى جمع الدراهم
فلا يحسب القيسى انى هجوته
ولكننى فضلت أهل المكارم

الشاعر يضع عنوانا لحديثه عن اليزيدين ، ذلك العنوان هو الندى ، وفى الشطر الثانى من البيت الأول ،

يبين للسامع من يريد باليزيدين ، واليزيدان تثنية لليزيد،
ومتى استبحنا لأنفسنا تثنية العـــلم فقد افترضنا بادىء الأمر
تنكيره ، لأن من شروط المثنى أن يكون نكرة ألم تسمع
الى قول من قال :

شرط المثنى أن يكون معـربا
ومفـردا منكرا ما ركبا ...

ونحن لذلك نستحسن من الشـــاعر ان يبـدل من
اليزيدين بدلا يحددهما تحديدا واضـــحا . لنعرف كلا
منهما معرفة تزيل التنكير الذى كان قد لحق بهما قبــــل
التثنية والشاعر قد عقـد موازنة بين هـذين اليزيدين فى
موضوع واحد هو الندى ، فأما أحدهما وهو يزيد سليم
فهو بخيل ، يسالم المال فلا يبذله فى كسب الحمد ونباهة
الذكر ، وهمه جمع الدراهم ، وأما الآخر وهو الأغر بن
حاتم الأزدى ، فقد صرف همه كله الى اتلاف المال فى الكرم
وهو لذلك لا يفتؤ عــــدوا للمال ، ولا يهادنه ولا يسالمه ،
واليزيدان لذلك ضدان ، أحـدهما الى أقصى الطرف من
اليمين والثانى الى أقصى الطرف من اليسار وعبر الشاعر عن

هذا البعد السحيق بينهما بقوله « شتان » ثم يطلق الشاعر بيته الأخير :

فلا يحسب القيسى انى هجوته
ولكننى فضلت أهل المكارم

ولا يدرى أنه أثار قضية خطيرة من قضايا المنطق ، فان أحدهما فى نظره كريم غـاية الكرم ، والـكرم صفة ايجابية لأن الكريم يفعل من الأفعال ما يقتضينا أن نصفه بهذه الصفه ، والثانى رجل بخيل ، والبخل صفة سلبية ، لأن البخيل لا يفعل من الأفعال الكريمة شـيئا ، أو هو يفعل أفعـالا لا تلحق به صـفة الكرم ، فأما ما يفعله من الأفعال التى تقتضينا أن نصمه بالبخل فهى فى نظر الشاعر لا تنزل به الى أدنى من درجة الصفر فى مراتب الناس ، فهو يقف عند الحد الفاصل بين الكرماء من النـــاس وغير الكرماء ، وغير الكرماء ناس عاديون ، ولـكن الكرماء هم وحدهم فوق العاديين من الناس ، فاذا نحن جئنا الى يزيد الثانى فقلنا له انك تسـالم مالك فلا تهلكه فى المعروف ، وانك تصرف همـك كله الى جمع الدراهم ، فاننـا حينئذ لا نكون قد هجوناه ، ولا آذينـاه بشىء ، لأن الأمر هنـا

كأن تقول له أنت انسان عادى ، تقع عند درجة الصفر في تصنيف الفائقين وغير الفائقين من الناس .

هما صنفان اذن فى نظر هذا الشاعر ، فضائل يحتويها ناس ، وهؤلاء ممدوحون وخلاء من الفضائل عند ناس ، وهؤلاء غير مذمومين ، وليس هجاء لهم أن تقول انهم بخال أو انهم يسالمون المال ويجمعون الدراهم ، وهذا قرار أخلاقى خطير من هذا الشاعر ، ان البخيل رجل لا يذم لبخله ، أو يحب ألا يذمه الناس لبخله فاذا مدحنا غيره بالكرم لم يكن الآمر فيه الا مسألة تفضيل أعنى مسألة وضع درجات لمراتب الناس :

وندع هذا الشاعر المتفلسف لنستمع الى بشار يهجو هجاء غير مباشر ، أو يستطرد كما يقول أهل البلاغة وعلماء البيان ، يقول بشار :

خليلى من كعب أعينا أخاكما
على دهره ، ان الكريم معين
ولا تبخلا بخلَ ابن قزعة انه
مخافة ان يرجى نداه حزين
اذا جئته فى حاجة سد بابه
فلم تلقه الا وانت كمين

هذا الهجاء يدخل اليه بشار من مدخل برىء ، فهو لا يقصد الى هجاء ابن قزعة وما هو بسبيل ذلك على الاطلاق ، انه يلتمس معونة خليليه الكعبيين، لأنهما كريمان والكريم معين كما يقول ذلك ويؤكده .

انه أراد فقط أن ينبههما الى طريق يجب أن ينأى عنه كرمهما ، هو طريق ابن قزعة ولكنه خشى ألا يكون سلوك ابن قزعة هذا واضحا لهما ، فهمس فى أذنيهما : ان ابن قزعة فى حزن مقيم ، لأنه خائف دائما من أن يتقدم أحد فيرجو نواله ، ويستندى كفه العطاء ، وهذا الخوف معنى يلازمه ويتلبس به تلبسا لا فراق له ولا فكاك منه فهو هكذا خلق ، يخاف أن يسأله سائل معونة ، ويملك الحزن عليه أقطار نفسه ، وهذا معنى عام من أخلاق ابن قزعة ، صوره بشار — على عموميته — تصويرا واضحا ، لكن التخصيص هنا لازم ، كأن يضرب مثل لهذا الخوف الدائم الذى يغشى نفس ابن قزعة ، هنا تتفتق ملكة الشاعر عن صورة نادرة من تصاوير البخلاء ، فهو أبدا محتجب ، لا يسمع نداء ولا يرد جوابا وبابه يسد فى وجوه طلاب الحاجات ، صحيح أن بعضهم قد يقتنصه فيصيبه فيلاقيه ،

ولكن ذلك لا يكون الا بتدبير حربى دقيق التخطيط وخطة مدروسة منظمة ، لا بد من أن ينصب له كمين ، فاذا ظهر أطبق عليه الكمين فوقع فى الحبالة ...

اذا سألت نفسك سؤالا : ما العنـــوان المباشر الذى يمكن أن يوضع لأبيات بشار ؟ انه بالتأكيد لن يكون هجاء ابن قزعة ، ولكنه قد يكون نصيحته لخليليه من كعب ، مع ان أوضح المرئيات فى هذه الأبيات الثلاثة ليس الا هجاء ابن قزعه وتصويره بهذه الصور المضحكة ومن هنا وقعت المفارقة التى جعلت لهذه الأبيات قيمة فنية وأدبية عالية .

ويصل بنا الحديث الى أبى الصقر اسماعيل بن بلبل ومادحه ابن الرومى ونقرأ فى صفحات التـــاريخ شكاة الشاعر من ممدوحه ، ثم هجاءه له ، مدحه أولا بقصـــيدة نونية بديعة قال فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرا شرف
كما علا برسول الله عدنان

فثار الممدوح وقال : أنا بشيبان ليست شيبان بى مع
أن الشاعر قد سبق هذا الاعتراض بالرد عليه حين قال :

ولم أقصر بشيبان التى بلغت
بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان ، قوم لا يشيبهم
روع اذا الروع شابت منه ولدان

لكن الممدوح حرمه من الجائزة وطرده .. فجرح
الشاعر جرحا فى قلبه لا يندمل وكانت النتيجة المحتومة
ان امتلأ ديوان الهجاء بأبى الصقر اسماعيل بن بلبل بمثل
قول ابن الرومى :

عجب الناس من أبى الصقر اذ
ولى بعد البطالة الديوانا
ولعمرى هل ذاك أعجب من أن
كان علجا فصار من شيبانا
ان للحظ كيمياء اذا ما
مس كلبا أحاله انسانا
يفعل الله ما يشاء كما شاء
لمن شاء كانا ما كانا

وبمثل قوله وقد أصابت أبا الصقر نعمة :

حلق أبا الصقر فكم ناهض
خر صريعا بعد تحليق

زوجت نعمى لم تكن كفؤها
فصانها الله بتطليق

لا بوركت نعمى تسربلتها
كم حجة فيها لزنديق

الشاعر هنا مغيظ محنق ان أصابت خصمه النعمة ، فهو يأمل أن تليها النقمة فان الطائر الملحق يسف بعد حين ويسقط ، ويخر صريعا ولئن تكن اصابته نعمة فهو غير أهل لها ومن ثم ساغ أو صرح لنفسه ـ ان يدعو الله ليصون تلك النعمة بزوالها عن غير مستحقها • ثم يدعو عليه بعدم البركة لأن النعمة فى يدى غير المستحق تشكك الناس فى عدالة الأقدار وهكذا استطاع ابن الرومى أن يبرر حنقه تبريرا فنيا رائعا •

# الحجاج بن يوسف

نتحدث الآن فى الحجـاج بن يوسـف الثقفى ، فنستعرض بعض الجوانب من حياته التى لم تزد على خمس وخمسين سنة ، لقد كان الحجاج عجيبا ، فى نشأته وتكوينه النفسى ، وارتقائه أوج الشهرة فى زمن قصير ، بدأ حياته معلما لصبيان الطائف ، ثم التحق بشرطة ابن زنباع ثم تولى أمر عسكر عبد الملك بن مروان ، لما اشتهر عنه من القسوة والغلو فى العقوبة ، ووجهه عبد الملك الى الحجـاز ليخمد ثورة عبد الله بن الزبير فنجح فى اخمادها ، ثم تولى أمر العراق فحكمه بالسيف والحديد عشرين سنة طوالا ، قتل فيها خلقا كثيرا ، أشهرهم سعيد بن جبير الذى قال أحمد بن حنبل فيه قولته المشهورة : قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد الا وهو مفتقر الى علمه .

وقد امتلأت كتب السير والتواريخ بكثير من الهوامش حول حادثة قتل ابن جبير وقد ذكر بعضها أن الحجاج حين

حضرته الوفاة كان يغيب عن وعيه ثم يفيق ويصيح مالى ولسعيد بن جبير ، كما قيل انه مرض قبل الموت مدة فكان اذا نام رأى سعيد بن جبير آخذا بمجامع ثيابه ويقول له : يا عدو الله فيم قتلتنى فيستيقظ الحجاج مذعورا ويقول مالى ولسعيد بن جبير .

وقبل أن يقتل الحجاج سعيد بن جبير جرت بينهما مناقشات طويلة ، أتى ابن خلكان فى الوفيات على أكثرها وكلها تشير الى جراءة ابن جبير وشجاعته ، وتنفى عنه الخور والجبن عند سماع الحكم عليه بالاعدام وعند تنفيذه، وحول هذه الأحاديث ودلالاتها ، أثبتوا أن سعيدا حين مات مقتولا بسيف أحد شرطة الحجاج ، شخب منه دم كثير ، لم يشخب مثله من قتيل من قبل ، وسئل فى ذلك أطباء ذلك الزمن فقالوا هذا قتل ونفسه معه ، والدم تبع للنفس ، أما من قتلوا قبله فقد قتلوا ونفوسهم ذاهبة من الخوف ولذلك قلت دماؤهم .

لكن القتل وسفك الدماء ليست هى كل ما يشتهر به الحجاج بن يوسف ، وان كانت قد جرت على أفانين عجيبة غريبة لم يسمع بمثلها من قبل ، فالحجاج أحد فصحاء

العرب المشهورين ، وحســــبك بأبى عمرو بن العلاء حين يقول : ما رأيت أحدا أفصح من الحسن البصرى والحجاج، والحجاج هو صاحب يد طولى على اللغة العربية ، فقد انتشر التصحيف والتحريف فى أيامه ، لأن الكتابة العربية لم تكن ذات نقط تميز بين الحروف المتشابهــــة فى الرسم كالباء والتاء والثـــاء ، وكالراء والزاى ، وكالحـاء والجيم والخاء ، فوهم الناس وخلطوا بين الحروف ، ونعوذ بالله من ذلك الذى رواه الحسن بن عبد الله العسكرى فى كتابه « التصحيف والتحريف » حين روى أن بعض القـارئين قرأ قوله تعالى « وجعل السقاية فى رحل أخيه » نطق به « جعل السقاية فى رجل أخيه » وقرأ قوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هكذا « ذلك الكتاب لا زيت فيــه » وقرأ «وما علمتم من الجـــوارح مكلبين » « وما علمتم من الخوارج مكلبين » نعوذ بالله من هذا .

لقد فشا التصحيف والتحريف فى زمن الحجاج ، فنشط الحجاج لعلاج الأمر ، وكان النقط هو هذا العلاج، وهو أثر من آثار الحجاج فى لغتنا الشريفة . ويقـال ان الذى وضعه له هو نصر بن عاصم . الذى وضع النقــط

آفرادا وأزواجا وخالف بين أماكنها ، فنقطة ونقطتان وثلاث وفوق الحرف وتحته •

ونصر بن عاصم هذا، كما قال أبو بكر الزبيدى هو أحد الذين شاركوا أبا الأسود الدؤلى فى وضع قواعد النحو العربى وتأصيل أصوله •

ومن أوليات الحجاج ، انه أول من ضرب درهما عليه « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » وله قصة من قصص المروءة والانسانية والشهامة العربية شبيهة بقصة المعتصم مع المرأة المسلمة التى احتازها الروم فى عمورية، فقد ذكروا أن امرأة مسلمة سبيت فى الهند ، ورووا للحجاج انها صاحت وهى تؤخذ للسبى واحجاجاه ، فثارت حمية الحجاج وقال لبيك لبيك ، وأنفق سبعة ملايين من الدراهم لانقاذ هذه المرأة المستصرخة •

والحجاج نهب لفوضى تاريخية كبرى ، فى كتب تواريخنا ، فبعضها يجرده من كل فضل ، وينسب اليه كل سوء ، وبعضها يمتدحه ويشيد به ، ويضع على رأس ما يكتبه قول ليلى الأخيلية فى مدحه :

أحجاج لا يفلل سلاحك انها الـ

منـــايا بكف الله حيث تراها

اذا وطىء الحجاج أرضا مريضة

تتبع أقصى دائهـــا فشـــفاها

شفاها من الداء العضال الذى بها

غلام اذا هز القنـــاة سقاها

أحجاج لا تعط العصـــاة مناهم

ولا الله يعطى للعصاة منـــاها

نقول ذلك لمناسبة ما ذكروه من أن المرأة المتمنية التى سمعها عمر بن الخطاب ليلة وهى تنشد فى خدرها :

هل من سبيل الى خمر فأشربهـــا

أم من سبيل الى نصر بن حجاج

هى ـ كما قالوا ـ أم الحجاج .

وبقية قصة نصر بن حجاج مع عمـــر بن الخطـاب مشهورة وخلاصتها ، ان عمر قال لما سمعها : لا أرى معى فى المدينة رجلا تهتف به العوائق فى خـــدورهن ، على بنصر بن حجاج ، فأتى به فاذا هو أحسن الناس وجهـــا

وأحسنهم شعرا فقال عمر رضى الله عنه : عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك ، فأخذ من شعره ، فخرجت له وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال عمر اعتم أى البس عمامة ، ففعل ففتن الناس بعينيه فقال عمر رضى الله عنه لا تساكنني فى بلدة أنا فيها ، فقال نصر : يا أمير المؤمنين ما ذنبى قال هو ما أقول لك وسيره الى البصرة .

فبعض كتب التاريخ تذكر أن المتمنية هى أم الحجاج، وبعض يزعم انها جدته أم أبيه وقد علق الشاعر المصرى المعاصر محمد حافظ ابراهيم على هذه القصة فى مطولته المسماة بالعمرية فقال :

جنى الجمال على نصر فغـــربه
عن المدينـــة تبكيه ويبكيهـــا
وكم رمت قسمات الحسن صاحبها
وأتعبت قصبات السبق حاويها
وزهرة الروض لولا حسن رونقها
لمـــا استطالت عليها كف جانيها
كانت له لمـه فينـــانة عجب
على جبين خليق ان يجليهـــا

وكان أنى مشى مالت عقائلها

شوقا اليه وكاد الحسن يسبيها

هتفن تحت الليالى باسمه شغفا

وللحسان تمن فى لياليها

جزرت لمته طالما أتيت به

ففاق عاطلها فى الحسن حاليها

فصحت فيه تحول عن مدينتهم

فانها فتنة أخشى تماديها

وفتنة الحسن ان هبت نوافحها

كفتنة الحرب ان هبت سوافيها

وفى عبقرية عمر للعقاد ، تناول هذه الحادثة من حياة عمر رضى الله عنه ، فأقرها ، وعللها بأن الخطر العام الذى يخشى اندلاعه يجوز أن يدرأ بتقييد لحرية بعض المواطنين على مثال ما تصنعه الحكومات الحديثة من اعلان الأحكام العرفية رعاية لمصلحة قومية أو وطنية أكبر ، يصغر أمامها هذا التقييد لحرية بعض الناس . ولم يذكر العقاد شيئا عن هذه المتمنية ولو أنه ثبت له أنها أم الحجاج لكان قد أفاض فى ذلك ولو بعض الافاضة .

والحجاج خطيب من خطباء العرب المفوهين ، وممن ملكوا ناصية البلاغة وقد قالوا ان بعض خطبه فى العراق هى التى أقرت الأمن فى ربوعه لا سيفه، بل قالوا ان الحجاج كان ينال بكلامه ما لا ينال بحد حسامه ، وتمتاز خطبه بشدة الأسر وقوة العبارات حتى لكأنه ملاكم فى حلقة يلوح بكلتا يديه ، ومن أشهر خطبه ، خطبته فى الكوفة أول ولايته على العراق حيث قال فيها :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفونى

أما والله انى لأحتمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله وانى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وانى لصاحبها وكأنى أنظر الى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى :

قد شمرت عن ساقها فشدوا

وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وترعرد

مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعى ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعصلبى
أروع خراج من الدوى

مهاجر ليس بأعرابى

انى والله يا أهل العراق لا يغمز جانبى كتغماز التين ولا يقعقع لى بالشتان ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وأن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى ، أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الابل .

وكان الحجاج ، صاحب ذوق فى الشعر ، يأوى اليه الشعراء من أمثال الفرزدق وجرير والأخطل فيستنشدهم ويثيبهم ويقترح عليهم الموضوعات الشعرية ، ويشاركهم فى

الاجازة والنقد فلا عجب أن تمتلىء بذكره كتب الشعر والأدب والنقد كما امتلأت بذكره كتب الوقائع والحروب والسياسة والرياسة • ونستطيع أن نستدل على قوة تأثير القول البليغ فيه من تلك الأحاديث التى يروونها عنه وعن بعض ذوى الفصاحة ممن وقعوا فى يديه وأراد أن يقتلهم فأطلقوا كلاما بليغا هدأ ثائرة الحجاج عليهم فأطلق كلمة العفو مرغما ، أو راضيا كالمرغم ومن ذلك ما ذكروا من أمر الشعبى معه حين دخل مع أسرى تمرد ابن الأشعث بعد موقعة دير الجماجم المشهورة ، وقال : أصلح الله الأمير نبا المنزل ، وأجدب بنا الجناب وستحلنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وضاق الملك ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء » فيقول الحجاج وهو مأخوذ بهذه البلاغة : صدقت خلوا سبيل الشيخ وكذلك ما رووا من أمر عمران بن حطان معه حين أمر الحجاج بقتله فقال للسياف اضرب عنق ابن الفاجرة فقال عمران : لبئس ما أدبك أهلك يا حجاج كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتنى به ؟ أفبعد الموت منزلة أصانعك عليها ؟ فخجل الحجاج أو قل أثرت فيه بلاغة الرجل وشجاعته فقال خلوا

عنه فطوقت عنق الرجل الخارجى هذه المكرمة من الحجاج وجاءه أصحابه بعدها يؤلبونه لحرب الحجاج فقال : هيهات ، ثم هيهات ، لقد غل يدا مطلقها وأسر رقبة معتقها ، فذهبت على وجه الزمان مثلا . والى جانب ذلك كان الحجاج يحب الفكاهة ويستطيب الفكاهة الرائقة حتى ولو أصابه رشاشها ذكروا أنه خرج بلا حرس متنكرا يتفقد أحوال النـاس فصادف رجلا فى طريقه فسأله عن الحجاج فأطلق الرجل لسانه فى الحجاج سبا وشتما وتجريحا وحين انتهى الرجل قال له الحجاج : أما أنا فالحجاج بن يوسف وأما أنت فمن؟ قال الرجل : أنا مجنون بنى عجل يصيبنى الصرع مرتين فى الشهر فلا أدرى ما أقول فيهما ، فضحك الحجاج حتى بدت نواجذه وأمر للرجل بجائزة .

# الحمار

ذكر الحمار فى القرآن الكريم عدة مرات ، أفلا يحق لنا بعد هذا أن نجعله موضــــوع حديث من أحاديثنا ؟ ، قال الله تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » وقال جل شأنه « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » وظفر الحمـــار بنصيب كبير من اهتمام معاجم اللغة ، وسارت أبيات من الشعر أمثــالا عن الحمار :

اذا ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ، ولا رجع الحمار

ويقول النابغة :

ولا يقيم على ضيم يراد به
الا الأذلان ، عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته

وذا يشج فلا يرثى له أحد

وهم يضربون المثل بالحمار فى نكر الصوت التزاما بقوله تعالى : « ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » والعير الحمار ، والعير القافلة التى تحمل الميرة . حميرا كانت أو بغالا أو ابلا ، حدثنى الدكتور الأستاذ أحمد عمار العميد السابق لكلية الطب بجامعة عين شمس ، وعضــو مجمع اللغة العربية ، انه أراد يوما أن يبحث عن القرابة فى المعنى بين العير ( بفتح العين ) أى الحمار والعير ( بكسر العين ) أى القافلة ، فلم يصل الى شىء ، حتى سأل الأستاذ العقاد فى ذلك فى احدى جلسات المجمع اللغوى ذات يوم ، فقال العقاد ان العير فى أصلها كانت قافلة الحمير ، وكان أكثر استعمالها لذلك فى الأراضى الوعــرة باليمن ، ثم ترك التخصص فى الاستعمال من الحمير الى الجمال والخيـل والبغال والحمير جميعا ، ولست أدرى لم يهــزأ الناس بالحمار هذا الهزء ، وفيه كما يقول الدميرى فى حيــاة الحيوان - خصلتان جـــدير بهما أن تكونا ممدوحتين ، احداهما الصبر على المكاره ، وهو الذى بالغ النابغـة فى

بيتيــه الشــهيرين فسماه ذلا وخنــوعا ، وتتفرع من هذه الخصلة بقــاؤه فى مكانه حيث تتركه • رووا عن الجاحظ انه قال : قال ثمامة بن أشرس : دخلت على صديق لى أعوده وتركت حمارى على الباب ولم يكن معى غلام يحفظه فلما خرجت اذا فوقه صبى يحفظه فقلت أركبت حمارى بغير اذنى فقال الغلام : خفت أن يذهب فحفظته لك فقال ثمامة : لو ذهب لكان أعجب الى من بقائه ! ومن باية الصبر لقب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين «بمروان الحمار» وكانت مدحا لا هجاء والخصلة الثانية انه يذهب الى المكان مرة ، فلا يضل عنه بعد ذلك أبدا ، زارنى أحد الأصدقاء فى منزل كنت سكنته حديثا مرة ، فلما أراد أن يزورنى للمرة الثانية ضل الطــريق وكان المنزل فى بعض الضواحى التى تتشابه طرقاتها وأبنيتها فأخذت ألومه وأقول له : لقد زرت هذا البيت من قبل فكيف تضل عنه أأنت حمار ، فبادرنى قائلا ، اننى بالتأكيد لست حمارا اذ لو كنت حمارا لعرفت طريق البيت من زورة واحدة ، ولما ضللت فى المرة الثانية •

ومن أشهر الحمير ، حمار عزيز الذى ورد ذكره

فى القرآن الكريم فى سورة البقرة اذ يقول الله تعالى « أوكالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له ، قال أعلم ان الله على كل شىء قدير » .

وقد اختلف أصحاب التفاسير ، هل مات الحمار مائة عام كما مات صاحبه ، أم أنه بقى حيا رغم موت صاحبه هذه المدة وعدم وجود من يعتنى بشأنه .

ومن أشهر الحمير كذلك حمار الحاكم بأمر الله الفاطمى ذلك الحمار الأشهب الذى كان يدعى بقمر ، وقد روى ابن خلكان أن الحاكم قد خرج فى نزهة على ظهر هذا الحمار ليلة الاثنين السابع عشر من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة هجرية وتوجه الى حلوان ، فضل الطريق فى الصحراء الشاسعة المترامية هناك حول حلوان ، وخرج الناس يلتمسونه فلم يعثروا له على أثر خلا انهم وجدوا

حماره الأشهب فى قرن من قرون الجبل وقد مات وأكلت سباع الوحش والطير لحمه وبقى هيـــكله العظمى ، وفى صحراء حلوان بل ربما كان فى المكان نفسه ضـل أحد نظار المدارس الثانوية من هواة الرحلات منذ عدة سنين وأكلت سباع الطير والوحش كل شىء فيه حتى عظـــامه وعرف بمظلة كانت فى يده وكان ذلك منذ عدة سـنوات وتذكر الناس يوما قصة غياب الحاكم بأمر الله الفاطمى .

وعقب غياب الحاكم زعم بعض المتغالين المتهوسين من محبيه انه لا يزال حيا ، وانه سيظهر يوما ويحلفون بغيبته وينتظرون عودته .

وكان للنبى صلى الله عليه وسلم حماران أحدهمـــا اسمه عفير وقد أهداه له المقوقس وحمار آخر اسمه يعفور أهداه اليه فروة بن عمر الجذامى .

ويظهر أن الحمار لم يكن محتقرا عند آبائنا العرب الأقدمين كما هو محتقر عندنا اليوم ألم نسمع باسم صاحب ليلى الأخيلية توبة بن الحمير ، فهذا أبوه حمير : حمـار مصغر ثم ألم تسمع بالنمر بن تولب ، فالتولب هو الجحش الذى استكمل حولا .

ثم ألم تسمع كذلك بحيى بن أخطب النضرى الذى كان ينعت بسيد الحاضر والبـادى والذى آذى المسلمين فأسروه يوم قريظة وقتلوه ، والأخطب من الحمير الذى فيه خضرة أوله خط أسود على ظهره ، ثم ألم تسمع بزينب بنت جحش ؟ وهى من هى بين أمهات المؤمنين رضى الله عنهن •

وأكل لحم الحمير الأهلية محرم عند أكثر أهل العلم لما ورد عن جابر رضى الله عنـه أن النبى صلى الله عليه وسلم « نهى عن لحوم الحمر الأهلية واذن فى لحوم الخيل» •

ورغم ما فى صوت الحمار من نكر وفظاعة وازعاج فانه يعشره ، أى ينهق عشرة أصوات فى طلق واحد ، قال الشاعر :

لعمرى لئن عشرت من خيفة الردى
نهـاق حمـار ، انه لجزوع

ومن الأمثال : فلان حمار حاجات قومه ، وهـو حمار شغل » •

وحول الحمار قامت خرافات كثيرة ، منها انه اذا ركب

الملسوع بالعقرب حمارا وجعل وجهه إلى ذنبه صار الوجع الى الحمار وبرىء الراكب .

والحمار الوحشى اسمه الفرا ، وفى الأمثال السائرة « كل الصيد فى جوف الفرا » ، ونقلب ديوان الشاعر المشهور ابن عنين الذى كان يعيش فى القرنين السادس والسابع الهجرى بالشام والعراق فنقرأ له قصيدة لطيفة جدا فى رثاء حمار له يصر محقق ديوانه على أن يقول انه مات ولم يقل انه نفق . والطريف أن قصيدة ابن عنين فى رثاء حماره وردت فى جميع نسخ الديوان المخطوطة فى باب الرثاء ، لكن المرحوم خليل مردم بك محقق الديوان وناشره رأى أن يضعها فى باب الدعابة والتهكم والسخرية يقول ابن عنين :ـ

ليل بأول يوم الحشر متصل
ومقلة أبدا انسانها خضل

وهل ألام وقد لاقيت داهية
ينهد لو حملتها بعضها الجبل

ثوى المصك الذى قد كنت آمله

عونا وخيب فيه ذلك الأمل

لا تبعدن تربة ضـمت شمائله

ولا عدا جانبيها العارض الهطـل

لقد حوت غـير مكسال ولا رعش

ان قيد القود من دون السري الكسل

قد كان ان سابقته الريح غادرها

كأن أخمصـــها بالشوك ينتعل

لا عاجزا عند حمل المثقلات ولا

(يمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل)

مكمل الخلق رحب الصدر منتفخ الـ

جنبين لا ضامر طاو ولا ســـغل

يطوى على ظمأ خمسا أضـــالعه

فى بيضة الصيف والرمضاء تشتعل

ويقطع المقفرات الموحشات اذا
عن قطعها كلت المهرية البزل

ففي الاباطح هيق راعه قنص
وفي الجبال المنيفات الذرا وعل

يرجع النهق مقرونا ويطربني
لحنا كما يطرب المزموم والرمل

لو كان يفدى بمال ما ضننت به
ولم تصن دونه خيل ولا خول

لكنها خطة لا بد يبلغها
هذا الورى ، كل مخلوق له أجل

والقصيدة طريفة جدا ، وقد قال انه غير ضامر لأن الضمور صفة لا تستحب الا في الخيل وقال انه سريع العدو جدا كأنه الهيق ، والهيق ذكر النعام ويضرب به المثل في السرعة وقال ان نهيقه المقرون أي المكرر المتواصل يطربه كما يطربه المزموم والرمل وهما لحنان من ألحان الموسيقى .

والأتان أنثى الحمار، وهى أقل شراسة وأكثر هدوءا منه ويظهر أن ركوبها كان يدل فى القديم على التواضع فقد سمعنا من قال : « من لبس الصوف وحلب الشاة وركب الأتان فليس فى جوفه من الكبر شىء ! » ويضربون المثل بالرجل يهون بعد العز فيقولون كان حمارا فاستأتن ومن الخرافات الشائعة بين العامة من أهل مصر أن الحمير اذا دخلت فى آذانها المياه فى شهر مسرى من الشهور القبطية نفقت لساعتها .

وفى الأدب الحديث شرقيه وغربيه نقرأ «بلاتيرو وأنا» للشاعر جوان رامون خمينيز صاحب جائزة نوبل للآداب سنة ألف وتسعمائة وست وخمسين ، وبلاتيرو كما يقول خيمينيز حمار صغير وافر الشعر ناعم الملمس يخيل اليك من فرط نعومته انه مصنوع من القطن بغير عظام لولا مرآتان لامعتان من الكهرباء السوداء كأنهما جعلان بلوريان هما عيناه ونقرأ كذلك حمار الحكيم لتوفيق الحكيم ، الذى اتهمه كثير من النقاد بسرقة حمار خيمنيز واشتدت الحملة الصحفية عليه سنة ألف وتسعمائة وثمان وخمسين بعد أن وصل حديث بلاتيرو وصاحبه الى بلادنا ويذكر الدكتور

لويس عوض فى احدى مقالاته بصحيفة الأهرام أن الزعيم الراحل جمال عبد الناصر حسم الأمر بأن منــح توفيــق الحكيم قلادة الجمهورية وهى من أرفع أوســمة الدولة ولقد كان لهذه الاشارة يومئذ مغزى واضح وعميق فقد كانت بمثابة اعلان رأى الدولة فى توفيق الحكيم أو بمثابة فصل فى الخطاب .

## أبيات الشعراء

تعالوا نسمر الليلة مع أبيات الشعراء ، لا نعنى تلك التى ينظمونها ويترنمون بها فتترنم من بعدهم بها الأجيال، والتى يصنعون بها ما صنعه الشاعر القائل : ـ

وآخـــذ اللفظ فضـــة فاذا
ما صـــنعته قيـــل انه ذهب

ولكننا نعنى مساكنهم وهى التى يتلقون وحى الشعر فى هدوئها وتحت سقوفها ، وبيت الشاعر يجب أن يكون فى البيوت عجيبا ، فان صاحبه عجيب بين الناس ولهذا فمن أجمل السمر أن تكون هذه الأبيات موضوعا فيه .

ونبدأ ببيت عبد الحميد الديب الشاعر البائس الذى مات منذ نحو ربع قرن ولم يكن له فى الأغلب الأعم من أيام حياته بيت يسكنه ، ولكن الدهر جاد عليه يوما بأن سكن غرفة متهدمة فى بيت قديم ، ورغم ضآلة أجرتهـا

فان عبد الحميد عجز عن دفعها المرة تلو المرة، وكان صاحب البيت يجيء لمطالبته فاذا فتح له الديب بابها ذعر الرجل لساكن لا يملك أثاثا يضمن به أجرة السكن . يقول الديب في ذلك :

أفي حجرتي يارب أم أنا في لحدى
ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد

وهل أنا حي أم قضيت وهذه
اهابة اسرافيل تبعثني وحدى

لكم كنت أرجو حجرة فأصبتها
بناء قديم العهد أضيق من لحدى

تراني بها كل الاثاث فمعطفي
فراش لنومي أو وقاء من البرد

وأما وساداتي بها فجرائد
تجدد اذ تبلى على حجر صلد

فأهدأ أنفاسي يكاد يهدها
وأيسر لمس في بنايتها يردى

تساكنني فيها الأفاعي جريئة

وفي جوها الامراض تفتك أو تعدي

أرى النمل يخشى الناس الا بأرضها

فأرجله أمضى من الصارم الهندي

تحملت فيها صبر أيوب في الضنى

وذقت هزال الجوع أكثر من غاندي

جوارك يا ربي لمثلي رحمة

فخذني الى النيران لا جنة الخلد

ويصف صاحب المنزل يطالبه بالأجرة فيقول :

يمر على سكناي في ذيل بيته

مرور عيون الموسرين على الفلس

تكبر فالألفاظ منه اشارة

كأن عباد الله طرا من الخرس

يطالبني بالأجر في غيظ دائن

تصيده المحتال بالثمن الوكس

وقال يدارى ظلمه : أى ضامن
لسكنى تعرت عن سرير وعن كرسى
أراك بها كل الأثـــاث ولا أرى
سوى قلم ثاو على الأرض أو طرس
فقلت له هذى جدودى كما ترى
فما مسكني فى البيت بل أنا فى رمسى
وقلت معاذ الدين ما كنت مرة
غريما ولا أذللت يومى ولا أمسى
وأسمعته صوت الدراهم فانحنى
يقدم أعذار اليهود من الوكس
وأخضع فقــرى كبــره وثراءه
وأى غنى للمرء غير غنى النفس
اذا كانت السكنى بأجر مذلة
فما أرحب المجان فى غرف الحبس
فانى أرى فيهــا الطعــام ولا أرى
غريمــا يلاقينى بعارضــه النحس

وقريب من هذا قصيدة للصافى النجفى الشاعر العراقى المعروف نشرها فى ديوانه الأمواج يقول فيها :

أكافح البرد فى سراج
يكاد من ضعفه يموت

فى غرفة ملؤها ثقوب
ان شئت قل ملؤها بيوت

يسكن فيها بلا كراء
فأر وبق وعنكبوت

للفأر من مأكلى غذاء
والبق جسمى لديه قوت

واعتزل العنكبوت أمرى
وفى بقاه معى رضيت

فهو معى مثل فيلسوف
معتزل دأبه السكوت

أغرفة للمنام هذى
أم هى منفى به نفيت

جمـدت من بردها ولكن

في الصيف من حرها شويت

أمشي بهـا خائفـا لأني

أخشى انخسـافا اذا مشيت

وقد أحب الشاعر العراقى الكبير حازم سعيد أحمد أن يمازحه تعقيبا على قصيدته هذه فقال له :

يا أيهـا الراهب الشـتيت

نصيحة خلهـا تفـوت

أرق من كل ما تغنى

الفقر والدمع والسـكوت

وندع بيت ابن الرومى الذى غصبت جزءا منه امرأة أعياه أمرها فشكاها وسـجل ذلك فى احدى روائعـه ، وغصب جزءا منه تاجر يسمى ابن ابى كامل واستعلى عليه بغناه وشكا ابن الرومى أيضا شكاة مرة ، ندع ذلك الى بيت العقاد الذى كتب فيه كتابا نثريا من روائع كتبه وكنت منذ مدة قد ذهبت الى بيت العقاد بصحبة الأستاذين أحمد

البشر الرومى ومحمد ملا حسين وبينا نصعد السلم الرخامى اذا بالأستاذ البشر يقول : لقد صعد العقاد على درجات هذا السلم ثلاثا ثلاثا ثم اثنتين اثنتين ثم واحدة واحدة يشير بهذه العبارة الى فقرة من كتاب العقاد كنى بها عن أنه قضى فيه فترة الشباب والكهولة والشيخوخة فهو فى زمن الشباب كان يصعد سلالمه ثلاثا ثلاثا وهو فى الكهولة كان يصعدها اثنتين اثنتين وفى الشيخوخة كان يصعدها واحدة واحدة !

وكتب العقاد فى ديوانه عابر سبيل قصيدة رائعة تحت عنوان بيت يتكلم قدم لها بمقدمة نثرية قال فيها :

كل بيت من البيوت التى تعاقب عليها السكان لو ألقيت عليه طلسم الخيال وأمرته بالكلام لانطلقت منه أسرار وأشباح يزدحم بها فضاء المكان ولسمعت عجبا لا تسمع الآذان أعجب منه وليس الذى يتحدث به البيت فى القصيدة التالية الا قليلا من كثير •

جميع الناس سكانى

فهل تدرون عنوانى

ومـا للنـــاس من سر
عـــدا آذان حيطـــانى

حـــديثى عجب فيـــه
خفـــايا الأنس والجـــان

فكـــم قضـــيت أيامى
بأفـــراح وأحـــــزان

وكــم آويت من بـــر
وكم آويت من جـــان

فان أرضـــاكم سرى
فهاكم بعض اعـــلانى

وكان أول السكان زوجين جديدين يظهران الوفاء
ويبطنان الخيانة يقول العقاد :

وراحا ـ هـكذا يحـكو
ن ـ فى روح وريحـــان

وما أبصرت من هـــذا
ولا من تلك فى آن

سـوى خـوانة خـرقا
ء تفرى عرض خـوان
اذا ما ضـحكا يوما
على غش وبهتـان
حسـدت البيـد والأطـ
ـلال فى غيظى وكتمـانى
وأشـفقت من النقـ
ـمة أن تهتز أركانى

وكان الساكن الثانى بخيلا يخـزن المـال ويستعبـد نفسه لجمعه :

وجاء السـاكن الثانى
وبئس السـاكن الثـانى
يراه النـاس ذا مـال
وأفـراس وغيطـان
وقـد شـوهنى بخـلا
وأعـرانى وأعيـانى

وقد صبرنى سجنـا
ومنه كان سجانى

فلما طال بى عهدا
ولم أسعد بهجران

وددت لو أن لى فى
كل جُحر ألف ثعبان

بديلا منه ارضاه
وأحبوه بغفران

الى أن آده أجرى
ولم يظفر بنقصان

فأخلانى ولن أنـ
سى سرورى يوم أخلانى

وكان الثالث ضعيفا بين الناس يستر ضعفه بالطغيان والكبر :

اذا ما لقى الناس
بكبر منه طنان

فمـا أصـغر ما ألقـ

ـاه منـه بين جدرانى

وجاء الساكن العالم الأديب فملأ البيت كتبا وصحفـا وحرمه السهرات والندوات :

ومالى مطبخ أو مخـد

ع أو بهـــو ضـيفان

ولا زاويـة الا وفيـ

ـها الـكتب تلقـانى

أبى للنفس دعـواهـا

ولم يسـمع الجثمـان

فلا سـهرة أحبـاب

ولا جلسـة ندمان

فمـا أجهـله بالحـق

ذاك العـالم الغـانى

أبين النـاس يحتـا

ج الى عـلم وتبيـان

وهم عميـــان ظلمـــاء
سروا في اثـر عميـــان

كثير لـك يا انســـ
ـان في دنيـــاك عينـان

يتحدث البيت بعد ذلك فيقول ان شر من آواه ذلك الذي يخون وطنه ويبيع ذمته ولم يحمد الا سكنى الفنـان الذي نقشه وزخرفه وكساه الحسن :

ولم أحمد من الضـيفا
ن ضيفا مثـل فنـان

تـولانى بابـــداع
من الفـــن واتقـان

وغطى كل جـــدرانى
بمنضـــور ومزدان

وأوحى الحســن واستوحا
ه من جنـــات رضـــوان

فحينـا حسن مكســـو
وحينـــا حسن عريان

بريشا في سماء الفن
من عيث وأدران

وفنانا على الحالين
لكن أى فنان

كما تفتنك الزهرة في
في أعطاف أغصان

ثم يتفلسف البيت الذى عرف الناس جميعا فلم يعرف أهم أعداء أم هم أقران :

فلم أعرف أأعداء
هم أم جمع أقران

اذا ما اختلفوا في سيمة
تبدو وشغلان

فهم في الموت أشباه
وفي سقم وأشجان

مساكين فلا تحفل
من الناس بانسان

ولا تحســـد فتى منهم
على بـــأس وامــكان

فأعـــلاهــم وأدنـــاهم
أمــام الغيب صـــنوان

ثم يختم هذه القصيدة الفلسفية بتلك الأبيات :

نزيل المنـــزل الخـــالى
ألا تعــــرف عنــوانى ؟

اذا ما طفت حوليـــــه
فثـــق أنك تلقـــــانى

فمـــا من منـــزل الا
وفيـــه بعض ألـــوانى

# الكلب

اذا كنا قد خصصنا حديثا للحمار ، فاننا سنجعل هذا الحديث عن الكلب ، والكلب أقرب الى الناس من الحمار فان كثيرا من الناس يربون الكلاب ويهتمون بها ، وبعض الناس يتخذون للكلاب من يقوم بخدمتها والسهر على طعامها وشرابها من بنى آدم وقد ورد ذكر الكلب فى القرآن العظيم فى سورة الأعراف قال الله تعالى:

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

وورد فى قصة أصحاب الكهف أربع مرات مرة عند ذكر قيامه على باب الكهف وثلاث مرات عند ذكر عدد أصحاب الكهف .

واشتق القـرآن الـكريم من اسـم الكلب فعلا قال تعالى : فى سورة المائدة « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم اللـه فكلوا مما أمسـكن عليكم واذكـروا اسـم الله عليه » •

والكلب حيوان أليف وقد يتوحش ويضرى ويصيبه داء يخيف الناس منه وهو يسمى الكلب مشتق أيضا من اسم الكلب •

ومن أشـهر الكلاب قطمير كلب أهل الكهف الذى بسط ذراعيه بوصيد الكهف ، وبراقش تلك التى جنت على أهلها وعلى نفسها حين نبحت ساعة الغـارة فدلت المغيرين عليهم فأعملوا فيهم السيوف والرماح فضرب بهـا المثـل فقيل على نفسها جنت براقش •

وكلاب اسم يرد فى نسب النبى صلى الله عليه وسلم، قال بعض العلماء انه جمع كلب وذلك واضح ، وقال بعضهم انه مصدر كالب يكالب كلابا ومكالبـة أى دافـع ونافح وجاهد وقاتل واسم الكلب فى أصول اللغة يقع على كل سبع عقور وغلب على هذا النابح •

وفى ديوان ديك الجـن الحمصى من تحقيق الأديبين العالمين العراقيين أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى قصـيدة يفتخر فيها بقبيلته كلب ويقول فى مطلعها :

كلب قبيلى وكلب خير من ولدت
حـــواء من عرب غر ومن عجم

وقد يسمى الأسد كلبا ، واهتم الناس بالكلاب فى كل العصور واتخـذوهم للزينـة أو للحراسـة أو للاستئناس وما زال للكلاب فى بعض أقسـام كليـات الشرطة مكان وعليها قيم مدرب تحبه ويحبها ، وقد اسـتغل الناس فى الكلاب قوة حاسة الشم فاتخذوها للكشف عن المجرمين تشم مكان الجريمة وآثار المجرمين ثم تجرى سعيا اليـه فتمسك به ويحاول هو التخلص منها فلا يستطيع وفى كلب من كلاب الشرطة يقول محمود غنيم :

كلب يدل على الجنـــاه
تمشى العـــدالة فى خطاه

ان قـــال ارهفت النيـــا
بة سمعها وصغى القضـــاه

لم يعى أهـــل البحث سر
غــامض الا جــبلاه

يسـتخرج السر الدفين
كأنه بعض الحـــواه

الى أن يقول :

قالوا أتطرى الكلب قلت
لهم ومن أطرى ســواه

يــرعى الــوداد وما رأ
يت من الأنام فتى رعــاه

سألوا الـكلاب الحق اذ
وجدوه بين النــاس تاه

وذكر الشـاعر الجـزار الكلاب فى شعره وقد لامه اللائمون على ترك الشعر واتخاذ صنعة الجزارة « أى ذبح الحيوان وبيع لحمه » حرفة له فقال :

كيف لا أعشــق الجـزارة ما عشـ
ت وأقلى الفنـــون والآدابـا

فبها صارت الكـــلاب ترجينى
وبالشعر كنت أرجـو الكلابا

وأراد بالكلاب الأولى هذا الصنف من الحيوان وبالثانية البخلاء من الناس الذين كان يمدحهم بقصائده فلا يجزونه عليها الا الحرمان والرد •

وأراد ابن الرومى أن يهجو بعض من أوقعهم القدر فى طريقه واسمه عمرو فعقد موازنة لطيفة بين عمرو هذا وبين الكلب انتهى منها الى تفضيل الكلب على عمـرو بعد استعراض كل منهما •

وجهك يا عمـرو فيه طول
وفى وجوه الكلاب طول

والكلب واف وفيك غـــدر
ففيـك عن قـدره سـفول

وقـد يحـــامى عن المواشى
وما تحـامى وما تصـــول

وأنت من بيت قـوم ســـوء
قصـتهم قصـــة تطول

وجوههم للورى عظـــات
لكن أقفاءهم طبـــول

بيت كمعنـــاك ليس فيـــه
معنى ســـوى أنه فضـــول

مستفعلن فاعلن فعـــول
مستفعلن فاعلن فعـــول

وقال ابن الرومى أيضا فى هجاء رجل اسمه خالد :

خســـأت كلبـا مر بى مرة
فقال مهلا يا أخا خـــالد

حسبكم خزيا بنى آدم
شركتكم ايـــاه فى والد

وقد اشتد الغلو بأحد المؤلفين فألف كتابا اسمه « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » واسم هذا المـؤلف : محمد بن خلف بن المرزبان بن بسام وله الى جانب هذا الكتـــاب تآليف ومنقـــولات عن الفارســـية التى كان يجيدها .

وقد عاش فى القرنين الثالث والرابع الهجريين وقد تحدث فى كتابه هذا فقال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا قتيلا فقال صلى الله عليـه وسـلم ما شأنه ؟ قالوا انه وثب على غنم بنى زهرة فأخذ منها شاة فوثب عليه كلب الماشية فقتله فقال صلى الله عليه وسلم : قتل نفسـه وأضاع دينه وعصى ربه وخان أخاه وكان الكلب خيرا منه، وينسب الى الشافعى رضى الله عنه فى هذا المجال قوله :

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة
وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
ان الكلاب لتهدأ فى مرابضها
والناس ليس بهاد شرهم أبـدا

والكلاب نجسة كلها لا فرق فيها بين صغير وكبير بل ان الكلب اذا ولغ فى الاناء فلا طهارة له الا أن يغسل سبعا احداهن بالتراب •

والعرب تتمدح بجبن الكلب لأن جبن الكلب آية كرم أصحابه ، يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه : —

لله در عصـــابة نادمتهـــم
يوما بجلق فى الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول

وفى صفة الكلب الوفى روى الدميرى فى حياة الحيوان أن محمد بن حرب قال دخلت على العتابى يوما فوجدته جالسا على حصير وبين يديه شراب فى اناء ، وكلب رابض بالفناء بحياله يشرب كأسا ويولغه أخرى فقلت له : ما الذى أردت بما اخترت فقال : اسمع ، انه يكف عنى أذاه ويكفينى أذى من سواه ويشكر قليلى ويحفظ مبيتى ومقيلى وهو من الحيوان خليلى، قال محمد بن حرب فتمنيت والله أن أكون كلبا له لأحوز هذا النعت منه .

وصوت الكلاب العواء والنباح والهرير وشبه ابن عنين به صوت أحد المغنين فى مقام الهجاء فقال :

وابن هلال اذا تنحنح للغـــ
نـــاء يعـــوى مشابه الكلب

ويقول عبد الحميد الديب فى كلبة له ولأهله :

ليت الأنام كلاب ان كلبتنــا
لما تزل لحفاظ الود عنـــوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة
لم تشك جوعا ولم تستجد انسانا

ومات كلب العقاد واسمه بيجو فحزن عليـــه حزنا شديدا وقال فيه قصيدة تعد من أروع قصائده يقول فيها :

حزنا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تثور الضلوع
حزنا عليه جهد ما أســـتطيع
وان حزنا بعد هـــذا الولوع
والله يا بيجـــو لحزن وجيع

***

حزنا عليـــه كلـــما لاح لى
بالليل فى ناحيـــة المنـــزل
مسامرى حينـــــا ومســـتقبلى

وسابقى حينـــا الى مدخــــلى
كأنه يعـــــلم وقت الرجـوع

***

وكلما داريت احــــدى التحف
أخشى عليهــا من يديه التلف
ثم تنبهت وبى من أســـــــف
ألا يصيب اليـــوم منها الهدف
ذلك خير من فؤاد صديع !

***

حزنا عليـــــه كلمــــا عزنى
صدق ذوى الألبـاب والالسن
وكلـــما فـــوجئت فى مأمنى
وكلما اطمأننت فى مســــكنى
مستغنيا أو غانيـــا بالقنـوع

***

وكلمــــــا ناديتـــه ناســــــيا
بيجو • ولم أبصر به آتيـا

مداعبـــا مبتهجـــا صـــاغيا
قد أصـــبح البيت اذن خاويا
لا من صدى فيه ولا من سميع

وكان العقاد وبعض أصـدقائه من الأدباء قد أقاموا حفلة لمناسبة مضى أسبوع على ولادة كلبة أحد الأصدقاء وكانت تسمى فلورة فقال العقاد يبـارك للنفســاء ويحيى المولود :

أعلنى يا فلـــورة الأفـــراحا
واملئى الأرض والســماء نباحا

ما حبـــا الدهر بنت كلب بأغلى
من ذراريك عنصرا ولقـــاحا

أبشرى دولة الكلاب بجـــرو
سوف ينفى عن جيله الأتراحا

ما تقضى الأســـبوع الا تمشى
يذرع الدار جيـــئة ورواحا

حرك الدهر ذيله حين وافى
وعوى الكون بهجة وانشراحا

يلبس الطوق من نضيـار ودر

ويحوك الخز الثمـــين وشاحا

وأراه يعيـــد ســـيرة قطميـ

ـر وقارا وفطنة وصـــلاحا

## الشعر التائه

هذا لون من الأدب ، أو بالأحرى من حديث الأدب، طريف غاية الطرافة ، وهو عن اشتهار أبيات أو قصـــائد من الشعر ، وظفرها بين الأدباء والمتأدبين بصيت عريض؛ ثم لا تلبث حتى يتنازعها طائفة من الشعراء كل منهم يدعيها لنفسه ، بل انه ليحلف على ذلك بالأيمان المغلظة ، وبذلك صارت هذه الأبيات والقصـــائد تائهة فى ديوان الأدب ، لا يعرف النقاد لها أبا ينسبونها اليه، فيظنون أحيانا ويقطعون بالرأى أحيانا أخرى .

وقد التمس صديقنا الشاعر المؤرخ الأديب محمـــد عبد الغنى حسن العذر للأقدمين بما رآه عند المحدثين ، حين نسبوا بعض أبيات شوقى الى حفنى ناصف ؟ ونسبوا بعض أبيات حفنى ناصف الى اسماعيل صـــبرى مع أن مسافة الزمن بيننا وبينهم لا تعدو عشرات السنين فما بالنا والمسافة

بيننا وبين الأقدمين مئات أو آلاف من السنوات ... ان الأقدمين ولا شك معذورون !

والشاعر العراقى حافظ جميل يؤكد فى ديوانه «نبض الوجدان» المطبوع فى بغداد سنة ألف وتسعمائة وسبع وخمسين أن القصيدة التى أولها : ـ

يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
يا خير ما أجنت الأغصان والكتب

هى من نظمه وحده ، نظمها أيام كان طالبا فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، لكن أخانا الأديب المترجم المجاهد خيرى حماد يروى لنا أنها ليست له منفردا ، وانما شاركه فى نظمها نفر من طلبة الجامعة فى ذلك الحين ومنهم الشاعر المرحوم ابراهيم طوقان .

وأشهر القصائد الحائرة فى الأدب العربى قصيدتان احداهما القصيدة التى عرفها قراء الأدب باسم القصيدة الدعدية ، أو الدرة اليتيمة ، وقد ادعاها كثير من الشعراء وللدعدية هذه قصة ، فهم يزعمون أن أميرة من أهل نجد، وقيل من أهل اليمن آلت على نفسها ألا تتزوج الا من رجل يناظرها فى البلاغة والفصاحة ويغلبها ، ويستعلى

بيانه على بيانها بالروعة والسحر ، وظلت على هذه الحال مدة من الزمن ، يتقدم للزواج بها الشاعر أو الخطيب ثم لا يلبث أن يولى أمام بلاغتها مهزوما ، فسمع بأمرها شاعر من البلغاء والشجعان وأراد أن يتقدم اليها وأعد نفسه للقائها بقصيدة اجتهد فى حسن سبكها وجمال نظمها غاية الاجتهاد ، ثم مضى الى ديارها ونزل وهو فى الطريق اليها ببعض الديار ، فرآه رجل وسأله عن قصده وعرف قصته وسمع قصيدته وكان هذا الرجل ممن سبق له التقدم لخطبة الأميرة ، فاحتال حتى أهلك الشاعر واستلب قصيدته وادعاها لنفسه وذهب الى الأميرة ، ولما سألته عن نفسه أجابها اجابات تخالف بعض ما ورد فى قصيدته فصرخت قائلة : اقتلوا هذا الرجل ، فانه قاتل بعلى •••• واشتهرت القصيدة بالدعدية نسبة الى دعد اسم هذه الأميرة •

وقد ادعى القصيدة الدعدية أربعون شاعرا حلفوا على انتحالها وتماروا عليها فيما بينهم ، ومن أشهر من نسبت اليهم ذو الرمة غيلان ، والعكوك وأبو الشيص الخزاعى ويرى صديقنا عبد الله الجبورى أمين مكتبة الأوقاف العامة ببغداد انها الى أبى الشيص أرجح لشدة التشابه بينها وبين

كثير من شعره ، وان كان يؤكد أن أبياتا أضيفت اليها من غير شعر أبي الشيص ، والقصيدة الدعدية طويلة جدا ، لا نستطيع روايتها هنا ، لطولها من جهة ولسبب آخر أنها تدرجت في وصف محاسن جسد المـــرأة ، وانزلقت الى ما يجب أن يترفع عنه مقام كهذا المقام ، ومنها :

هل بالطـــلول لســـائل رد
أو هل لهـــا بتكلم عهـــــد

لهفي على دعـــــد وما خلقت
الا لطلوب بليتي دعـــــــد

بيضـــاء قد لبس الأديم بهـــا
والحسن فهو لجـــلدها جـلد

ويزين فوديهـــــا اذا حسرت
ضافي الغـــدائر فاحم جعـــد

فالوجه مثـــل الصبح منبـــلج
والشـــعر مثل الليل مســـود

ضدان لمـــا استجمعا حســـنا
والضــــد يظهر حسنه الضد

وكأنهـــا وسنى اذا نظـــرت
أو مدنف لمـــا يفق بعـــد

بفتـــور عين ما بهـــا رمـــد
وبها تداوى الأعـــين الرمـــد

وتريك عرنينـــا يزينـــه
شمم وخـــدا لونـــه الورد

وتجيل مســـــواك الاراك على
ثغـــر كأن رضابه الشهد

ما شانهـــا طـــول ولا قصر
فى خلقهـــا فقوامهـــا قصد

ان لم يكن وصل لديك لنـــا
يشفى الصبابة فليـــكن وعـــد

ان تتهمى فتهـــــامة وطنى
أو تنجدى ، ان الهـــوى نجـــد

ولقـــد علمت بأننى رجـــل
فى الصالحات أروح أو أغدو

سلم على الأدنى ومرحمـــة
وعلى الحوادث هادىء جـــلد

متجلبب ثوب العفاف وقـد
غفـــل الرقيب وأمكن الورد

ومجانب فعـــل القبيــح وقـد
وصل الحبيب وســاعد السعد

ومن مشهورات هذه القصيدة :

آليت امـــدح مقـــرفا أبـدا
يبـــقى المديح ويذهب الرفد

هيهات يأبى ذاك لى ســـلف
خمدوا ولم يخمد لهم مجد

والجد كنـــدة والبنـــون هم
فزكا البنـون وأنجب الجد

فلئن قفـوت جميل فعلهـــم
بذميم فعـــلى اننى وغـــد

وأبو الشيص الذى رجحت اليه نسبة هذه القصيدة يقول عنه صاحب الأغانى انه متوسط فى شعراء عصره غير

نبيه الذكر ، لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى نواس فخمل ، وقد عمى فى آخر حياته فرثى عينه بقصائد جياد منها قوله :

يا نفس بكى بمـــــدمع هتن
وواكف كالجمـــــان فى سنن

على دليـــلى وقائـــدى ويدى
ونور وجهى وســـائر البـــدن

أبكى عليها بها مخافة أن
تقـــرننى والظـــلام فى قرن

وثمة قصيدة كالقصيدة الدعدية فى مشربها واتجاهها بل هى مثلها فى الروى فكلتاهما على روى الدال ، وان كانت هذه مضمومة وتلك مكسورة ، هذه القصيدة الأخرى للنابغة الذبيانى زياد بن معــاوية ، الشاعر الجـــاهلى طائر الصيت ، وأحد أصحاب المعلقات وقصيدته أيضا فى وصف المرأة وذكر محاسن جسدها، وقد انزلقت مثلها الى مايجب أن يترفع عنه مقام كهذا المقام ، وهى فى المتجردة زوجة النعمان وأولها :ــ

أمن آل مية رائح أو مغتد
عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح ان رحلتنا غدا
وبذاك تنعاب الغراب الأسود

لا مرحبا بغد ولا أهلا به
ان كان تفريق الأحبة في غد

ومنها :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه
فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه
عنم على أغصانه لم يعقد

وبفاحم رجل أثيث بنته
كالكرم مال على الدعام المسند

نظرت اليك بحاجة لم تقضها
نظر المريض الى وجوه العود

والقصيدة الثانية الحائرة قصيدة قيلت في أحد العلويين

ونظنه عليا زين العابدين رضى الله عنه، بحين مضى الى الحج فى عهد هشام بن عبد الملك اذ ذهب هشام بين جنـــده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس فلم يستطع أن يبلغ الحجــر الأســود لتزاحم الحجيج ، وأنه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزين العابدين يقبل الى الحجر الأسود فى وقاره وهيبته فيتنحى له الحجيج ويحفون به ، وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل ثم يعود من حيث أتى ويشيعه الناس بالدعاء والاجلال .

ويتساءل بعض رجال حاشية هشام « من هذا الذى هابه الناس » ويرد هشام لا أعرفه ! فيتصدى للرد عليـه أحد الشعراء، أرجح الأقوال انه الفرزدق همام بن غالب قائلا :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحـرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطــاهر العـلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قــد ختمـوا

فليس قولك من هذا بضـــائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم

اذا رأته قريش قال قائلهـــا

الى مكارم هذا ينتهى الـــكرم

وعلى زين العابدين هو الذى نجا من مقتلة كربلاء فامتد به عقب الحسين فى التاريخ وقد روى العقاد فى كتابه « أبو الشهداء » حديثا جرى بينه وبين ابن زياد يدل على شجاعته وقوة نفسه .

والشعر الحائر كثير ، ولعل سببه فى البيت والشطر هو وقوع الحافر على الحافر كما يقولون ، فليس ما يمنع من أن تقع جملة أو يقع معنى فى خاطر شاعرين يتفقان أو يختلفان فى الزمان والمكان أما امكان ذلك بالنســـبة للقصيدة أو للمقطوعة أو حتى للبيتين فأمر نراه مستحيلا وما هو الا الانتهاب والاختلاس .

واذا كان ثمة شاعر يذكر فى هـــذا المجال من بين المنهوبين فانه ابن الرومى الذى ظلمه عصره أبشع الظـلم

فعاش فقيرا بائسا يلتمس العطاء فلا يناله بل انه ليلتمس الثوب فلا يكاد يدركه :

جعلت فداك لم أسأل
سك هذا الثوب للكفن
سألتكه لألبسه
وروحى بعد فى بدنى

هذا الشاعر المسكين نسب كثير من شعره الى غيره ؛ فمثلا هذان البيتان :

قصرت أخادعه وطال قذاله
فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعوه أول صفعة
وأحس ثانية لها فتجمعا

وهما فى وصف الأحدب وقصته مع ابن الرومى مشهورة متداولة ـ هذان البيتان نسبا الى شاعر مغمور يقال له ابن الطباخ ، ومثلا هذه المقطوعة الرائعة له فى وصف قوس الغمام : ـ

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا
على الجو وكنا والحواشى على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأخضر
على أحمر فى أصفر اثر مبيض

كأذيال خود أقبلت فى غلائل
مصبغة والبعض أقصر من بعض

وهذه الأبيات الرائعة نسبها الثعالبى صاحب يتيمة الدهر الى سيف الدولة بن حمدان ـ ونسبها مرة أخرى فى كتاب اليتمية أيضا الى عضد الدولة وهذان البيتان :

أطال الله فى بغـــداد همى
وقد يشقى المسافر أو يفـــوز

ظللت بها على كـــره مقيما
كعنـــين تعـــانقه عجـــوز

نسبهما ياقوت فى معجم البلدان الى ابن المعتز • وهما على التحقيق لابن الرومى •

ويشتهر الفرزدق فى ديوان الأدب بأنه ينتهب لنفسه

أحسن ما يسمع من الشعر ويروى المرزبانى فى الموشح قصصا كثيرة عن هذا الانتهاب الأدبى ، فالفرزدق ينتهب من ذى الرمة قوله :

أحين أعاذت بى تميم نساءها
وجردت تجريد اليمانى من الغمد

ومن الشمردل اليربوعى قوله :

وما بين من لم يعط سمعا وطاعة
وبين تميم غير حز الحلاقم

ومن ابن ميادة قوله :ــ

لو أن جميع الناس كانوا بتلعة
وجئت بجدى دارم وابن دارم

لظلت رقاب الناس خاضعة لنا
سجودا على أقدامنا والجماجم

ومن الراعى النميرى قوله :

كم من أب لى يا جـــرير كأنه
قمر المجرة أو سراج نهـــار
لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم
وأوابدى بتمحـــل الأشـــعار

ومن جميل قوله :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

قالوا وهذا من قصيدته التى أولها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعـزف
وأنكرت من حوراء ما كنت تعرف

وقد انتهب تسعة أبيات أخرى من القصيدة نفســـها من الأعلم العبدى :

والعجيب فى الموضوع أن النقاد يلتمسون له العـذر فيما فعل فيقولون : انما فعل الفرزدق بجميل وذى الرمة وغيرهما هذا لأنه كلما مر به شعر جيد رأى نفسه أحق به من قائله لفضله عليه فى الشعر ولأنه من جنس جيده لا ردىء قائله .

## الشعر الحلمنتيشى

فى أواخر العشرينات وأوئل الثلاثينات من هـــذا القرن ، كنا نقرأ فى مجلة كانت تصدر آنذاك عن دار الهلال اسمها الفكاهة ، شعرا تختلط فيه العامية بالفصحى من نظم المرحوم حسين شفيق المصرى أحد أعلام الفكاهة والأدب فى ذلك الأوان ، وكان الشعر معارضات لأشـــهر القصائد العربية فى العصور المختلفة ، وقد اتخذ له صاحبه عنوان « المشهورات » وكان يوقعه بامضاء «شاعر الفكاهة» ومن أمثلة ما نظمه معارضته لقصيدة طرفة التى أولها :

لخولة أطـــلال ببرقة ثهمـــد
تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

فقال :

لزينب دكان بحـــــارة منجـد
تلوح به أقفاص عيش مقـــدد

وكان صيت الزجـــل كله والفكاهة كلهـــا منعقدا للأستاذ حسين شفيق المصرى وأوغر ذلك عليه صـــدر المرحوم محمود بيرم التونسى ، الذى لم يلق من زمنه الا النفى والتشريد فهجاه بقصيدة مشهورة يقول فى بعضها :

يا حســين ابن شفيقـــه ،
ضجرت منك الخليقـــة

أبدا تحدث كالنـــاقو
س أصـــواتا عتيقـــة .

هل ترى الناقوس قـــد
غـــير فى الدنيـا زعيقه

أم رأيت الجحش يستبد
ل ما عاش نهيقــــــه

حامل جمجمـــة جوفاء
بالقطـــع خليقـــة

ثم أخذ يزاحمه فى معارضاته للقصـــائد القديمـة فيسمونها ويدخل فيها بعض العبارات العامية والكلمات ثم

يغير من أفكارها ومعانيها ما يجعلها مضحكة ولكى تكون المزاحمة واضحة جعل بيرم عنوان معارضاته «المشخورات» ووقعها باسم « شاعر السفاهة » .

ومن أشهر القصائد التى عارضـــها بيرم معارضـــته لقصيدة صوفية نظمها الشاعر الكبير عمر بن الفارض وقال فى أولها :

أنتم فـــروضى ونفـــلى
أنتم حديثى وشـــــغلى
يا قبلتى فى صـــــلاتى
اذا وقفت أصـــــلى
جمالكم نصـــب عيـــنى
اليـــــه وجهـــت كلى
وسركم فى ضـــــميرى
والقلب طور التجـــــلى

فقال بيرم مصورا حال بعض معاصريه :

أنتم فروضى ونفـــــلى
أنتم حـــديثى وشـــــغلى

أهـــل الكلـوب ومالى
عـــن الكلوب تخـــلى
قضـــيت فيـــه حيـاتى
على ســبيل التســـلى
الناس تلعـــــب يومـا
وكان لعـــبى تمـــلى
كفى بجســمى دليـــلا
وشـــعرى المتـــدلى
وبدلة ليس فيهـــــا
مـــــن النظـــافة ملى
وجـــزمة بنت كلب
منها ترى الناس رجلى
والأكل خبـــز وفجل
لا بل ومن غـــير فجل

وعارض بيرم التونسى قصيدة الشريف الرضى التى يقول فى مستهلها راثيا :

منابت العشب لا حام ولا راع
مضى الردى بطويل الرمح والباع

فقال :

حطوا الغفير على الدكان يحرسه
فباعه جملة لا بيع قطـــاعى

جاء الحرامى له ليلا وقاوله
على الذى فيه من مال وابضاع

والصبح جاء الى الدكان صاحبه
فلم يجد فيه غير السـقف والقاع

قال المعاون شغل ليس نعــــرفه
فاللص لا يسرق المستيقظ الواعى

وقال شوقى فى أنس الوجود :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى
ممسكا بعضها من الذعــر بعضا

فقال بيرم التونسى فى أحد ندماء شوقى وكان قــد أصيب بداء القراع :

بأبى قرعة عليهــا عــــروق
( حسنت صنعة وطولا وعرضا )

فوف سطح الملساء مشتبكات
( ممسكا بعضها من الذعر بعضا )

قرعة فوق هام حر كريم
( كالثريا تريد أن تنقضا )

رصعت باللآلئ الحمر زهرا
( يا سماء الجلال لاصرت أرضا )

ذاك نوع من الضياء غريب
( كان حتى على الفراعين فرضا )

كل لون تريده فيه يبدو
( لا تحاول من آية الدهر غضا )

والصدور من نظم بيرم والاعجاز لشوقى .

واشتهرت فى ذلك الأوان قصيدة للسيد محمد توفيق البكرى تسمى « المنبهجة » يقول فى أولها :ـ

قم نحو حماه وابتهج
وعلى هذا المحيا فعج

ودع الأكوان وقم غسقا
وأصدق فى الشوق وفى اللهج

أيام أخى تصاحب مـــن
لم ينهك عن طرق العوج

فيعارضه بين بمنبهجة ساخرة يقول فيها :

يا صــاح وحقك ليس على
من رام المرقص من حرج
الرقص حياة النفس فقـــم
وادخل للمرقص وانــدمج
جمعوا النســوان مع الفتيا
ن فيـــا للأمر المنبهــــج
ما كاد مغنى القــوم يدق
الدف بلحــن منه شـجى
حتى انفرطت وحــداتهم
ثم ازدوجت بالمــــزدوج
وفقيـــه الله على حــدته
قمن بالشـــوق المعتـــلج
فى الركن يرقص لحيتـــه
وتروح عمـــامته وتجى

ومن يوم نظم بيرم منبهجته ترك الناس فى حلقات الذكر المنبهجة القديمة الأصيلة وكنت أظن أن « مسخرة » القصائد القديمة ـ أى تحويلها الى قصائد ساخرة ـ عمل نهض به ابتداء حسين شفيق المصرى ثم قفى على اثره محمود بيرم التونسى حتى وقعت عينى صدفة على شبيه لهما بل انه لأخف منهما دماً ـ فى صحائف تاريخ الجبرتى ذكر خبر وفاته فى حوادث سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية وقال عنه انه الشيخ الصالح الشاعر اللبيب الناظم الناثر الشيخ عامر الأبنوطى الشافعى شاعر مفلق هجاء لهيب شراره محرق ، كان يأتى من بلده يزور العلماء والأعيان، وكلما رأى لشاعر قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية الى الهزل والطبيخ فكانوا يتحامون عن ذلك ، وكان الشيخ الشبراوى يكرمه ويكسوه ويقول له يا شيخ عامر لا تزفر قصيدتى الفلانية ـ ومعناها لا تجعلها ذات رائحة نتنة ويعطيه جائزة ومن بعده الشيخ الحفنى كان يكرمه ويغدق عليه ويستأنس لكلامه وكان شيخا مسنا صالحا مكحل العينين دائما متجيبا فى هيئته ومن معارضاته ألفية الطعام على وزن ألفية ابن مالك يقول فيها :

يقول عامر هو الأبنـــوطى
أحمد ربى لست بالقنـــوط
وأســتعين الله فى الفيــــه
مقاصـــد الأكل بها محـــويه
فيها صنوف الأكل والمطـــاعم
لذت لكل جائـع وهـــائم

الى أن يقول:

طعامنا الضانى لذيذ للنهـــم
لحما وسمنا ثم خـــبزا فالتقم
فانهـــا نفيسه والأكل عـــم
مطاعما الى سناها القـــلب أم

ومنها : والأصل فى الأخباز أن تقمرا
وجوزوا التقـــديد اذ لاضررا

وعارض الشيخ عامر قصيدة الطغـــرائى المشـــهورة بلامية العجم والتى أولها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطــل
وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

مجدى أخيرا ومجدى أولا شرع

والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل

وان أردت نجاحا أو بلوغ منى

فاكتم أمورك عن حاف ومنتعل

وذلك بقوله : ـ

أناجر الضـأن ترياق من العلل

واصحن الرز فيهـا منتهى أملى

أكلى غداء وأكلى فى العشـاء على

حد سوى اذا اللحم السـمين قلى

فيم الاقامة بالأريـاف لا شبعى

فيها ولا نزهتى فيهـا ولا جذلى

أريد أكلا نفيسا أسـتعين به

على العبادات والمطلوب من عمـلى

والدهر يفجع قلبى من مطاعمه

بالعدس والكشك والبيصار والبصل

ناديت هيا ولا تبطيء بغـرفك لى

فانه خلق الانسان من عجـــل

ولعمر بن الوردى لامية مشهورة يقول فيها :ـ

اعتزل ذكر الأغـانى والغـــزل

وقل الفصل وجانب من هـــــزل

ودع الذكر لأيـــام الصـــبا

فلأيـــام الصبا نجـــم أفـــل

وأهجر الخمرة ان كنت فتى

كيف يسعى فى جنون من عقل

لا تقل أصـــلى وفصـــلى أبدا

انمـــا أصل الفتى ما قد حصل

فجاء الشيخ عامر الأبنوطى فقلبها طبيخا فقال : ـ

اجتنب مطعوم عدس وبصـــل

فى عشاء فهو للعقل خبـــل

وعن البيصـــار لا تقـــربه لا

تمس فى صحة جســـم من علل

واحتفل بالضأن ان كنت فتى

زاكى العقل ودع عنك الكسل

من كباب وضـــــلوع قد زكت

أكلها ينفى عن القلب الوجـل

## المدح فى الشعر

كان المدح فى الزمن القديم بابا واسعا من أبواب كسب الرزق عند الشعراء فجل الشعراء كانوا يتكسبون بالشعر ، وينالون به عطايا الملوك والأمراء والوزراء وأهل الوجاهة والثراء لكن الشاعر القديم رغم ذلك كان حريصا على أن يبث خواطره وبعض معالم نفسه فى أبيات قصائده فى المدح ، حتى ان بعض الشعراء دخل على ممدوحه يوما، وألقى بين يديه قصيدته فى مدحه وكانت تشتمل على نحو أربعين بيتا جعل الشاعر منها نيفا وثلاثين بيتا فى الغزل بمحبوبته وأبقى للممدوح بضعة أبيات !

وكان الشاعر لا يمدح فردا بذاته بقدر ما يصور بعض المثل العليا فى صفات كانت ولا تزال أثيرة عند العرب كالشجاعة والكرم والايثار والمروءة التى هى جماع الفضائل كما يقولون .

وقد كان الشعراء يمدحون ولا يسألون ، ابقاء على ماء وجوههم ، وتكريما لمكانتهم فى الشعر بين أقوامهم ، حتى جاء الأعشى فسأل بصراحة ، فثار به النقاد ثورة عنيفة وقالوا انه أسقط مكانة الشعر والشاعر بعد أن رفعهما أمثال النابغة، وجاء بعده الحطيئة وجرير فسألا واسترفدا وأبرزت حائية جرير ذلة السؤال ومرارة الاسترفاد حيث يقول :ـ

سأشكر ان رددت على ريشى
وأنبت القوادم فى جناحى

لكن المدح مع هذا ظل موضوعا من موضوعات الشعر العربى لا يمكن طرحه ولا الاستغناء عنه وتغالى فيه الشعراء حتى أوقعتهم المغالاة فى الكفر كابن هانىء الأندلسى الذى يقول لممدوحه :ـ

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

أو يقول :

نزلت ملائكة السماء بنصره
واطاعة الاصباح والامساء

وبلغ بهم الأمر أن صار المدح لا يصدر عن عاطفة ولا ينبت من صدق فجف فيه ماء الشعر وذوت نضـــارة القصيد ، لذلك كان أهم ما دعا اليه دعاة التجديد في أوائل هذا القرن ترك المدح الكاذب ، وهو المدح الذى لم تلهمه عاطفة صادقة ولم تدفع اليه تجربة وجدانية صحيحة .

لكننا مع هذا لا نستطيع أن ننكر المدح لأنه مدح ، فالمدح الصادق أدخل فى باب الشعر من الغزل الكاذب والتشبيب المصنوع والوصف الذى لايتجاوز ظواهر الشىء الموصوف . ولذلك فنحن نرحب بالمدح الصادق ، ولا سيما ذلك الذى يتأسى أمداح أسلافنا من الجاهليين والاسلاميين الأوائل ، حين ينصرف هم الشاعر الى تصوير المثل العليا فى الشجاعة والكرم والمروءة ، فان هذا المدح له من الأثر فى مشاعر الناس ووجداناتهم ما للنسيب والتشبيب .

وتبعا لما تقدم لم يزعجنى ما قرأته فى ديوان معروف الرصافى من الأمداح ولم أعتبره شاعرا رجعيا من أهــل القديم بهذه الأمداح وقد أنصف صديقنا المحامى العراقى هلال ناجى حين كشف عن بواعث هذه الأمداح . وعن الصلة الوثقى التى كانت قائمـــة بين معـــروف الرصافى

وممدوحه المحبب مظهر الشاوى الذى كان يعيش في بغداد وتوفى ليلة الخامس والعشرين من يولية ( تموز ) سنة ألف وتسعمائة وثمان وخمسين ميلادية ودفن بجامعه المعروف باسمه والذى شيده فى كرادة مريم فى جانب الكرخ من بغداد .

وكان الشاوى فى المعتقل لبعض ظروف سياسية سنة ١٩٤٤ وسمع أو قرأ مقالا كتبه الأديب العراقى السيد مهدى القزاز بمجلة الأديب البيروتية عن الرصافى ، ووردت فى المقال عبارات تنم عن مقدار الفاقة المزرية التى كانت تحيط بالرصافى - وهذا تعبير الصديق هلال ناجى بنصه - وروى الكاتب أن الرصافى يتوكأ على عصا من جريد النخل قال الشاوى فاقشعر جلدى ووقف شعر رأسى وخجلت أن تكون فى العراق خمسة ملايين نسمة ومنهم شاعر واحد ويعجزون عن اعاشته فكتبت من فورى الى وكيلى فى مزارعى الملا عبد الهادى كتابا طلبت فيه أن يبتاع ثلاث كسوات عربية كاملة وأن يصنع للرصافى عصا من الأبنوس مفضضة ويطعمها بالذهب ويكتب عليها انها هدية الشاوى لصديقه الرصافى وتم ما أردت فشكرنى

الرصافي بقصيدة ثم خصصت له راتبا شهريا قدره أربعون ديناراً عراقيا ظل وكلائي يدفعونها ثم قصدت كاتب العدل فأوصيت أن يستقطع من تركتي هذا المبلغ شهريا وتدفع الى الرصافي مادام حيا اذا عاجلتني المنية قبله • ولكن الرصافي انتقل الى رحمة الله وصديقه الشاوي في المعتقل•

وهذه مأثرة لا بد أنها تؤثر في الحجر ، فضلا عن شاعر فيه من رهافة الحس ولطف الشعور ما في الرصافي رحمه الله ، فاذا نظم الرصافي في مدح هذا المنعم الكريم بعض القصائد فاننا نتقبل منه هذا المدح على أنه شعر صادق صحيح له قيمته في ديوان الشعر الأصيل ، يقول الرصافي من قصيدة بعد تمهيد شعري طويل :ـ

أمظهر قد أخرستني اذ شملتني
بعاطفة قد ضاق عنها التصور

على حين كان الناس شتى قلوبهم
وكل لكل كاره متنكر

فأطلقت بالاحسان حرا مقيدا
به يترامى جده المتعثر

فوالله لا أدرى ، وانى لحائر
بأى لسان ناطق لك أشكر

سأشكرك الشكر الذى أنت أهله
وان كان شكرى عن نوالك يقصر

واجعل قرص الشمس عند طلوعها
عـــلامة شكر كل يوم يكرر

اذا ذر قرص الشمس كل صبيحة
تلا قرنها شكر كوجهك مزهر

ويقول الرصافى فى الحلة التى كسى بها :

أهديت لى حلة غيظ الحسود بها
لأنها تحفة من أنفس التحـــف

فرحت أرفل فيها وهى ضافيـــة
وأنت ترفل فى الضافى من الشرف

وصار عيشى بما أوليتنى رغـــدا
وكان من قبل رهن البؤس والشظف

وفى العصا يقول :

أنا شيخ وذى عصـــاى فتيـه
قد أتتنى من مظهر لى هديـة

صاغـة الصـابئين قد البسوها
حلية ذات صنعة عبقـــرية

وشـــحوها من مظهر بكـلام
معـــرب عن مودة أخـــوية

هى تحكى عصا ابن عمران قدرا
فلذا صيغ رأسها رأس حيـة

فسأمشى بهـا قويا سـويا
بعد ما كنت ماشيا كالحنيـه

وستبقى الذكرى بهـــا لاخاء
موثق بالوشائج الادبيـــــة

شرف قـــد أفاد فيـــه إخائى
لكريم من أسرة حمـــيرية

.. لكن الشىء العجيب حقا ، هو أن أعرف بعد قراءتى

هذا الكلام أن الرصافى قد ألف جمهرة من الكتب بلغت خمسة وعشرين وأن بعضها كديوانه قد طبع عدة مرات وأن القراء قد اقتنوا هذه الكتب بدليل نفاد طبعاتها ، وانه مع هذا كان فقيرا معدما يعيش فى شيخوخته تحت رفد أحد الأثرياء ولا ينفعه هذا الصيت الأدبى والشعرى الذى ملأ العالم العربى من خليجه الى المحيط .

ولكن لا . لا عجب وعندنا مثل آخر كهذا المثل وان كان أقل منه فى حدته وشدته عندنا العقاد الذى اكتملت مؤلفاته مائة فى حياته ، وطبع بعضها عشر طبعات ومات قبل منتصف شهر مارس ( آذار ) سنة ألف وتسعمائة وأربع وستين ، وحين فتحت حافظة نقوده بعد وفاته بقليل وجد فيها بضعة عشر جنيها أخزى هنا أن أذكرها بالتحديد ولم يترك فلسا واحدا فى مصرف من المصارف .

ويقولون بعد هذا ان العقاد كان عميلا وكان تاجر مبادىء ألا ساء مايقولون !

واذا كان الشىء بالشىء يذكر ؛ فقد كنت أمس فى احدى قاعات الموسيقى وسمعت لحنا رائقا لأحد الموشحات الأندلسية تؤديه فرقة من الفرق الرسمية الكبرى ؛ والآلاف

من المحتشدين فى هذه القاعة يســـمعون منصتين معجبـين وكأن على رءوسهم الطير ، وعرفت اسم الملحن العبقرى وتذكرت أنى رأيته فى أخريات أيامه فى الثلاثينات من هذا القرن يتسول ، أى والله يتسول، أى يسأل بعض الناس صدقة ..... وقلت ان القدر قد لطف بالرصافى حين قيض له صديقه مظهرا الشاوى ومن يدرى لعــله لو لم يقيضه له لكان كهذا الموسيقى العبقرى .

# تمنح جنيهان من الخيرات

منذ نحو ربع قرن من الزمان أو يزيد قليلا كنت أعمـــل فى وزارة الأوقاف المصرية مديرا لمكتب وزيرها الأديب العالم الأستاذ ابراهيم دسوقى أباظه رحمه الله وجاء شهر رمضان المبارك ورصدت الوزارة مبلغا من اعتمادات الخيرات يوزع على المحتـــاجين والفقراء لهـــذه المناسبة الاسلامية المجيدة وكانت الطلبـات تقدم الى الوزير أحيانا والى وكيل الوزارة أحيانا أخرى وقطعت طريق الوزير الى مكتبه بالوزارة ذات يوم سـيدة من ذوات الحاجة وقدمت طلبها الى الوزير يدا بيد، ووقع الوزير على الطلبات التى قدمت اليه وبينها طلب هذه السيدة وكان التوقيع على ورقة هذه السيدة « تمنح جنيهان من الخيرات » ثم جاءت الطلبات كلها الى مكتبى لتأخذ سبيلها الى التنفيذ وفق ما أمر الوزير به ؛ فوجهت جميع الطلبات وجهاتها لكننى احتجـزت فى مكتبى طلب هذه السيدة ؛ لما لاحظته من الخطأ النحوى فى

توقيع الوزير ، وأخذت أتحين الفرصة لاعادة عــرض الطلب على الوزير لاصلاح ما وقع من الخطأ فى توقيعه فما كان ينبغى لى أن أدع ورقة كهذه تمر وعليها مثــل هذا الخطأ من رئيس جامعة أدباء العــروبة التى كانت تضم صفوة الشعراء والأدباء فى البـلد ومنهــم ابراهيم ناجى ومحمود غنيم وطاهر أبو فاشا وأحمد مخيمر والدكتــور ابراهيم سلامة وأحمد عبــد المجيد الغــزالى وأضرابهم وللوزير ولا شك خصوم سياسيون ، سيجعلون من مادة هذا الخطأ موضوعا من موضوعات حملاتهم عليه فى داخل البرلمان وفى خارجه اذ أنهم سيصورونه فى صورة الذى يتعرض لما لا يحسن ؛ وسيضعونه الى جانب ذلك الوزير الذى أراد أن يحيل احــدى الأوراق يوما الى « القــلم القضائى» فكتب عليها «تحال هذه الورقة الى القلم القضاقى» لأنه ظن أن الهمزة مبدلة من قاف على نحو ما يفعل أهل الحضر والمدن فى مصر من قلب القاف همزة فوقع فى خطأ شنيع ظل خصــومه السياسيون يتابعونه به زمنا طـويلا ويصفونه بالأمية والعجمة وما يتبع ذلك من عدم استحقاقه لمنصبه الرفيع خشيت أن تمر ورقة الجنيهين وفيهـا هـذا

الخطأ لأننى أرتأيت أن الفعل الذى يتعدى لمفعولين وهـو يمنح اذا بنى للمجهول كان المفعول به الأول نائبا للفاعل وظل المفعول به الثانى على حاله والمفعـــول به الأول فى ورقة هذه السيدة أو بالأدق فى توقيع الوزير على ورقـة هذه السيدة ، يغدو فى حالة البناء للمجهول ضميرا مستترا واستتاره هنا لا يعنى زواله من الجملة وانصرافه من جملة كلماتها فهو باق وان لم يظهر ويبقى المفعول به الثانى على حاله منصوبا ، كل ما فى الأمر أن الجملة فقدت الفعل وتغير الفعل الى هيئة المبنى للمجهول بعد فقد الفاعل وبقى بهـا المفعولان فأما أحدهما فقد اقتحم مكان الفاعل ، وأما الثانى فهو على ما كان .

وقد شغلت الوزير شــــواغل الوزارة والسياســة والحزب الذى كان ينتمى اليه فلم أستطع لقاءه طيلة أربعة أيام ، وفى اليوم الخامس قطعت الســـيدة المسكينة طريقه مولولة صائحة ان الناس جميعا قد أصابهم خير الوزير وبر الوزارة وانها هى وحدها قد ذيدت عن الخير والبر لسبب لا تدريه ، وتذكر الوزير أنه أمر بمنحها جنيهين وذكر لها ذلك فأكدت له أنها لم تتسلم شيئا .

ودخل الوزير مكتبه واستدعانى على الفور وسألنى عن جنيهى هذه السيدة المسكينة فقلت اننى قد احتجـزت الطلب وعليه التوقيع عندى حتى يتم تصحيح الخطأ الذى وقع فى توقيع الوزير ، وشرحت للوزير الخطأ كما رأيته، لكن الوزير أحب أن يتثبت وأن يعرف وجه الصواب بين رأيى وتوقيعه فأعطى السيدة الجنيهـــين من ماله الخـاص ودخل علينا فى هذه اللحظة المرحوم عبد الستار الباســل عضو مجلس الشيوخ وأحد زعماء القبائل العربية فى مصر وشقيق المرحوم حمد الباسل باشا وزوج الســيدة ملك حفنى ناصف التى كانوا يلقبونها « باحثة البادية » فقال له الوزير جئت فى أوانك وسأله المسألة التى نحن بصددها ومن عجب انه رأى خلاف رأيى بمقولة أن الجنيهين هما نائب الفاعل ، لا غيرهما واحتدم الجدل بينى وبينه ، ولم نصــل به الى غاية وخشيت أن ينهــزم رأيى لأنى لست الوزير أو لأنى لست عضو مجلس الشيوخ فقــررت أن يخرج التحكيم من غرفة الوزير وأن ينتقل الى غـــرفة رئيس تحرير مجلة الرسالة المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات ولم يكن اختيارى له لأنى أراه أعظم نحاة عصره،

ولكن لأننى كنت أعرف أن الوزير معجب بنثره وانشائه غاية الاعجاب وأنه يجله أعظم الاجلال ولا يفتأ يتحـدث عن أدبه وبلاغته وجمال مقالاته وروعتها وأعلنت للوزير وضيفه الشيخ الجليل ما أرى ، وسارعت فأدرت قـــرص الهاتف على رقم الأستاذ الزيات فاذا هو فى مكتبه واذا أنا أشرح له الأمر ، واذا هو يتطوع بالحضور على عجل ليبدى رأيه فى هذه القضية النحوية الخطيرة .

وجاء الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله ، وعلم أدباء الوزارة بالأمر من أمثـــال المرحومين كامل كيـــلانى ومحمود عماد وعلى شوقى وابراهيم ناجى وحسن السندوبى وانعقد مجلس الحكم وأخذت أترافع كما يترافع المحامون فى القضايا وأدعم رأيى بالشـــواهد والأسناد من دواوين الشعر وكتب الأدب والنحو جميعا وأخذ الوزير يؤيد رأيه بمعقولات ومنقولات وانضم جميع الحاضرين الى رأيى عدا واحدا لا أذكره الآن خرج التوقيع تخريجا لطيفا ، وكان من شواهده ما ذكره بعض المفسرين فى قوله تعـالى فى احدى القراءات « يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ... الى آخر الآية

الكريمة ، فالفعل يسبح مبنى للمجهول فى هذه القراءة ، ونائب الفاعل هو الجار والمجرور «له» وأما كلمة رجال فقد جاءت مرفوعة كأنها جواب مقدر عن سؤال سائل : من المسبح ؟ فقيل : رجال لا تلهيهم فهى خبر مبتدأه مقدر ، وتقديره « المسبح رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع » .

ولم أجد بدا من الاذعان لصحة الوجه الذى استشهد بتلك القراءة لهذه الآية الكريمة لكننى مع هذا استمسكت برأيي ووجدت أن هـــذا التأويل يحتاج الى تقدير شيء وأن رأيى الأول لا يحتاج الى أى تقدير ولا مفر بعـــد ذلك من انتصار القاعدة النحوية القـديمة التى تقـــول : « ما لا يحتاج الى تقدير أولى مما يحتاج » وأصدر الزيات حكمه بنصرة رأيى وصحة رأى الوزير ، فأصررت على كشف الأمر أكثر من هذا ملتمسا لديهـــم أنه اذا كان الرأيان صحيحين فلا يخرج الأمر فيهما عن ثلاث : الأولى تساوى الرأيين فى الصحة والثانية رجحان الرأى الأول على الثانى والثالثة رجحـــان الرأى الثانى على الأول ثم لا شيء بعد هذا وأعلن الوزير عن اقتناعه برجحان الرأى الذى ذهبت اليه ، وان سلطان العلم لا يعلو عليه سلطان

وانفضت المحكمة والمحاكمة بعد أن سمعت منى هذه الأبيات المرتجلة فى الموضوع :

قال الوزيـــر قولـــة
فى الدهر صارت مثـــلا

للعـــلم سلطان فـــلا
يعل عليه من عــــلا

وحـكم الزيـات حكمـا
فعنـــا له المـــلا

هما جنيهـــان أثـــا
را فى النـدى مشكلا

بالـــرفع أم بالنصـــب
يتلوها علينا من تـــلا

وكشـف الحق لنـــا
عن جانبيـــه وانجـــلى

وقد ســمعنا حكمـــة
كأنهـــا كأس طـــلا

يا مجلس الأكارم الـــ
أمجاد لا أبـــرح لا

حتى أقــول فيك ما
ترويه هضــب وفـلا

وان أكــن قد قلتــه
مستعجـــلا مرتجـــلا

لا عيـــب الا أن أقو
ل كاذبـــا منتحــــلا

# المسبحة

يجيء شهر رمضان المبـــارك كل عام ، فتشيع بين الناس عادة حمل المسبحة وقد يحملها بعضهم فى غير شهر رمضان ، فما المسبحة ؟

المسبحة ، من النظرة الأولى ، كلمة على وزن المفعلة من سبح ، وسبح هنا ـ فيما نرى ـ ليست من السباحة التى هى العوم فى المـــاء ، وانما هى من التحريك والتقـــلب والتصرف ويكون المصدر حينئذ السبح لا السباحة وفى كتاب الله الكريم « ان لك فى النهار سبحا طويلا » .

ويقال فيها « السبحة » وهى كلمة مولدة لم ترد فى نص قديم من كلام العرب . وعامة أهل مصر وكثير من غير أهل مصر يقول انها السبحة ! بكسر السين .

والظاهر انها مأخوذة من التسبيح أى قولك سبحان الله ، أو أنها مأخوذة من اسم الله العظيم «سبوح ، قدوس».

وليس فيما بين أيدينا من المــــراجع ما يدل على أن المسلمين الأوائل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يتخذون المسابح ، يسبحون الله عليها بعد حباتها واحــدة فى اثر واحدة ولكننا فى عصور تلت العصر النبوى بعدة قرون رأينا المسابح فى أيدى كثير من الناس ، والظـــاهر أنها بدأت فكرة ساذجة ثم تطورت بمرور الأيام ، اذ بدأ العابد ينتقى عددا من الحصى المتشابه فى الشكل والحجم ، ثم يذكر اسم الله به ، حصاة بعد حصاة حتى اذا انتهى من نقل الحصى من مكان الى مكان تبعا للتسبيح ، عرف أنه ذكر الله بعدد هذا الحصى الذى انتقاه ، ثم ما لبث أن ثقب هذا الحصى ، ونظمه فى خيط ، لضبط عملية التسبيح ثم توالت التحسينات على هذا الاختراع فاستبدلوا العاج والأبنــوس والكهرمان والزجاج والذهب واللؤلؤ والمــرجان بالحصى ، وأصبحت المسبحة من أقوى الدلالات على حاملها من غنى أو فقر فضلا عن دلالتها على شخصيته من طريقة امساكها ومن سرعة التسبيح أو بطئه الى نحو ذلك من الأحوال .

ومسبحة المسلمين نوعان نوع يبلغ عــدد حباته ثلاثا وثلاثين حبة ، ونوع يبلغ عدد حباته تسعا وتسعين ، وثمة

نوع ثالث ولكنه من الشذوذ والندرة بحيث لا يحسب له حساب وتلك هى المسبحة الألفية التى تضم ألف حبة ولسنا ندرى سر ذات الثلاث والثلاثين حبة الا أن تكون ثلثا للتسع والتسعين ، وهى بالفعل تسمى عند كثير من الناس الثلث ، لكن بعض الباحثين يؤكدون أنها منقولة من المسيحية ، لأنها تشير الى السنوات التى عاشها السيد المسيح على الأرض وهى ثلاث وثلاثون سنة فيما يرجح بعض المؤرخين لكن ابن قيم الجوزية ينكر ذلك ويدلل على صحة رأيه فى كتابه أعلام الموقعين .

أما ذات التسع والتسعين حبة فهى تقابل عدد أسماء الله الحسنى المعروفة وكلا النوعين معروف ومستعمل فى كثير من البلاد الاسلامية ، غير أن متخذ المسبحة القصيرة أقرب ما يكون الى التأنق ، ومتخذ المسبحة الطويلة أقرب ما يكون الى النسك والتدين .

وقد قرأنا فى بعض المصادر أن بعض رجال الدين من الكاثوليك يتخذون مسبحة مؤلفة من خمسين حبة ولكنهم لم يعرفوها الا بعد القرن الثالث عشر الميلادى أى

أنهم نقلوها عن العرب بعـــد حضـورهم الى الشرق فى الحملات الصليبية المعروفة .

والسبابة وهى الاصبع الذى يلى الابهـــم فى يدى الانسان تسمى السباحة هل لأنها أكثر الأصابع سـبحا أى حركة ؟ أم لأنها هى التى تسند المسبحة ليأخذ منها الابهام حبة بعد حبة ؟ المهم أنها سباحة وفى الحديث الشريف عن الوضوء فأدخل اصبعيه السباحتين فى أذنيه .

وصناعة المسابح وبيعها ، صناعة رائجـــة فى بعض البلاد الاسلامية خصوصا بالقرب من الأضرحة والمـزارات والعتبات المقدسة وهى تشكل نوعا من النشاط فى اقتصاديات هذه البلاد .

ومادة التسبيح فى القـــرآن الكـــريم أكثر من أن يحصرها العد ، وقد جاء فى التنزيل « سبح لله مافى السموات وما فى الأرض ـ خروا سجدا وســبحوا بحمد ربهم ـ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ـ وتسبحوه بكرة وأصيلا ـ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ـ كى نسبحك كثيرا ـ ويسبح الرعد بحمده ـ وان من شىء الا يسبح بحمده ـ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ـ ألم

تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض ـ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ـ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ـ فسبح بحمد ربك ـ ومن آناء الليل فسبحه ـ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ـ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ـ سبحان الله وما أنا من المشركين ـ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ـ قل سبحان ربى ـ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ـ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه » .

وبعض الناس يمسك بالمسبحة ولكن قلبه لا يتابع لسانه فى ذكر الله والصلاة على نبيه فهم بالمسبحة يخفون حقيقة أمرهم وفى أمثال هؤلاء عثرنا على قصيدة لطيفة لشاعر من شعراء العصر المملوكى عصر انحطاط الشعر وفساد نظمه ، فى الجزء الأول من تاريخ الجبرتى المشهور والقصيدة لا تعتبر نموذجا من نماذج الشعر الجيد ولا حتى الشعر المتوسط ولكنها طريفة من صاحبها الشيخ حسن البدرى الحجازى الذى يقول عنه الجبرتى انه الشيخ العمدة المنتقد الفاضل الشاعر البليغ الصالح وكان عالما فصيحا مفوها متكلما منتقدا على أهل مصره وأبناء عصره ،

يقول البدرى الحجازى من قصيدته الطويلة التى تكاد تبلغ أربعين بيتا :

أحــذر أولى التسبيح والسبحة
والصوف والعكاز والشـملة
والدلق والابريق لا سـيما
شيوخ ابليس أولى الشـعرة
قد صـــار ابليس لهــم تابعـا
يقول يا للعون والنجـدة
مما حويتم علمـــــونى فمـــا
لى عنكم فى المكر من غنيــة
لكم قيـادى وانقيـادى وما
مثلكم فى الناد والندوة
وانتم تاجى على هـامتى
ما همت الا كنتم همتى
ما زلـتم ما زلـتم عيبتى
فى غيبتى ماكنت أو حضرتى
ذو كرة بالمـال يبغـون ما
لهــم بغــير المال من بغيــة

لكنهم فى الفسق أرقى الورى
كما ترى من غـــير ما مرية

فى هيبة يمشون مع هيئة
تخشـعا من غير ما خشـية

ولحافظ ابراهيم قصيدة طريفة منشـورة فى ديوانه قالها على لسان بعض المتصوفة فى محبوب نافر ، يقول فيها وقد ذكر السبحة :

أخـــرق الدف لو رأيت شـكيبا
وافض الأذكار حتى يغيبا

هو ذكرى وقبلتى وأمامى
وطبيبى اذا دعـــوت الطبيـا

لو ترانى وقد تعمدت قتـلى
بالتنـائى رأيت شيخـــا حريبـــا

كان لا ينحنى لغـيرك اجـــلا
لا ولا يشـتهى ســـواك حبيبا

لا تعيبن يـا شـــكيب دبيبى
( انمـا الشـيخ من يدب دبيبا )

فســـلوا سبحتى فهل كان تسبيـ
حى فيهـا الا ( شـكيبا شـكيبا )

ولأخينا الشاعر : محمود حسن اسماعيل قصيدة ذكر فيها المسبحـة من ديوان كان قد نظمـه ونشره فى مدح الملك السابق فاروق وسماه « ديوان الملك » وكان الملك فاروق يحمل مسبحة من الكهرمان النادر ـ فأوحت للشاعر بهذه القصيدة قال فيها :

وحملت مسبحـة كأن مـدارهـا
فلق الهـدى للحـائر المتبـرم
حبـاتها فلذ القـلوب خواشـعا
عطلن بالثمـات آمال الفـم
نسق من الملك انفردت بعـزه
لسواك فى التاريخ لم يتقدم !

والشيء اللافت للنظر هنا أن الشـاعر جعل المسبحة من مفاخر فاروق ومن المعانى التى تفـرد بها من ملوك زمانه بل بين الملوك فى كل الأزمان وما نعتقد أنه وفق فى هذا المديح فان السبق الى حمل المسبحة لا يدل على فضيلة

نفسية أو وطنية أو دينية يمكن أن يتمدح بها المتمدحون
وما نحسب أن شاعرا يستطيع أن يمدح ملكا بأنه أول من
استخدم البساط فى مجلسه ، أو أول من ألبس حرسه
زيا أحمر أو أخضر أو أصفر ، فهذه صفات لا تتكون
منها فضيلة يمكن أن تضيف الى فاعلها فضل سبق يزهو
به ويمدحه به المادحون .

# مع شاعر شاب

نحن الآن مع شاعر ، لا يزال فى طور الشباب ، ومع ذلك فقد شاء القدر أن يحول بينه وبين الشعر ، بل بينه وبين حياة العقل والتفكير والفن ، فألقى به فى أحد أركان مصحات الأمراض العقلية ، لا يعرف أحدا ممن يعودونه بل لا يعرف نفسه اذا هو سئل عن نفسه . وكان هذا الشاب المسكين فى أواخر عهده بالعقل قد استودعنى كراسة تضم بعض ما كتب من الشعر واتخذ لها عنوانا « الصرخة الحمراء » لكنه حين سلمنيها ، لم أفطن الى أنها تحمل رقم اثنين ومعنى هذا أنه غفل عن أن يسلمنى الكراسة الأولى ثم ضاع فى زحام هذا الكون العجيب فلم أعد أسمع عنه الا أنه نزيل باحدى مستشفيات الصحة النفسية وأنه أكثر نزلائها غيابا عن الدنيا وعن نفسه .

كان هذا الشاب منذ نحو ربع قرن مضى من تلاميذى باحدى المدارس الثانوية بالقاهرة وقد ظفر منى ومن

غيرى من أساتذته بالتشـــجيع والتوجيه حين آنســـنا فيه شاعرا فى مدارج شاعريته الأولى ولكنه كان مع هذا يميل الى التجديد والابتكار والخلق •

ومددت يدى منذ أيام الى أحد رفوف مكتبى فقالت لى : « صرختـه الحمراء » هأنذا وقلبت صفحاتهـا فدهشت لأنى قرأت شـعرا ممتازا ، وأدبا جيدا وأفكارا لا تدور الا فى رأس فنان •

لكنى مع هذا ـ وأرجو ألا أكون ظالمه وهو فى محنة من دنياه ـ لاحظت فى شعره ما يدل على مستقبله العقلى والنفسى ، أو بعبارة أدق كن يجب أن أعرف ما سـيئول اليه أمره لو أنى قرأت هذه الكراسـة منذ خمسـة عشر عاما ، أى منذ سلمنيها فى احدى ليالى رمضـان سنة ألف وثلاثمائة وأربع وسبعين هجرية قرأت فى كراسته قوله :

كون يدور وفى دمى أسرار
لا يستثار هـــدوءها الجبار

عمقت فلما أوغلت فى عمقها
خفيت فمـا لقـرارهن قـرار

لم يعلموا الا بأنى شـــاعر
أشدو فيخفق فى يدى القيثـــار
يا ليتهم لمحو خـــلال ملاحنى
قـدرا تغلف سره الأقـــدار
فيــه من الأزل العـــريق معـالم
وبه من الأبد البعيد شـــعار
أنا لست قديسا ولا متصـــوفا
أنا مهجة شدت بها أوتــــار

وقرأت قوله :

انشـــد لحون الشعر أولا تنشد
أنا فى جحيم الحاضر المتمرد
أو لذ بصمت الناســكين تجـلدا
أو ذب من الأشجان لا تتجلد
ادلجت فى هذى الحياة مشردا
وطريقى الممدود غـــير معبد
لا شىء غير التيــه غير مفـازة
فيها السراب الضخم لم يتبدد

وعلمت أن هبــاءه متــوفــر
وأضعت أمسى فى الهباء فما غدى

وقرأت له :

قد كنت أشعر بالفنــاء يدب فى
نفسى ويمــلأ ليلتى ونهــارى
وتثور أشــباح الظلام بعالمى
فيضيع من هول الظلام وقارى
وطالما عاث الردى فى خاطرى
فرثيت حصن شــبابى المنهار
وأقول هــل أمضى الى قبرى ولم
تكمل أغــاريدى ولا أوطارى

وقرأت له :

دنيا دموع يا رفيــق رهيبــة
قلبى وقلبك فى دجاها كوكبان
نهدى الحيــارى فى طريق شــائك
ضخم الصخور ونحن نحن حيران

ولقد يلوح لنا سراب خادع
فنقول انا قد وصلنا فى أمان

لكن فى هذا التراب هياكلا
سكنت ولم ينطق بفحواها الزمان

وقرأت له :

قالوا ابتسم قلت ابتسمت وشاقنى
مرح الطفولة والجمال الشنيق

لكننى لم انس أنى ذاهب
برحابتى فى جوف قبر ضيق

فى مهجتى أمل سيخفيه الردى
فكأنه فى مهجتى لم يشرق

يا شعلة المأساة هيا أحرقى
سأظل أبسم للهيب المحرق

قرأت هذا كله كما قرأت غيره من شعر هذا الشاعر المسكين ولفتتنى أكثر من غيرها فكرة الحاح الموت على اقتحام أكثر قصائده اقتحاما والظاهر أن الشاعر قد مرض يوما

مرضا شديدا حتى أصبح على شفا الموت ، كما تدل على ذلك قصيدة فى ديوانه المخطوط عندى ، ذكر أنه كتبها وهو طريح الفراش فى مستشفى الخازندارة بالقاهرة وأن ثواءه بهذه المستشفى قد طال حتى يئس الشاعر من الحياة ، لكنه لم ييأس يأس من يتحول به يأسه الى التفريط فى كل شىء ، والى عدم المبالاة بكل شىء ، بل يئس من الحياة وخاف الموت فى آن ، فكان من هذين مطرقة هائلة وقعت على رأسه فأفقدته الرشاد .

لا أحب أن أذكر اسم هذا الشاعر هنا ، فقد يكون فى ذلك تشهير به ، ولكننى أروى أنه بعد أن تقدم به المرض وثقلت عليه العلة النفسية كان يزورنى فى منزلى ، وينشدنى شيئا من شعره القديم ـ أى الذى نظمه منذ عدة سنوات ، ثم ينشدنى شيئا من شعره الحديث فاذا هو كلام لا وزن فيه ولا قافية ولا معنى ، وموضوعاته غريبة كل الغرابة على دنياه فالى ابنة القرصان الحزينة يوجه الحديث ، والى حارس المقبرة المغلفة بأسرار الغيب ويتوزع انشاده بين ومضات من هناك وشطحات من هنا ، يجد فى انشادها جدا ، ويتوقر فى القائها توقرا ، ولست أدرى

ماذا يقول الآن فانى لم ألقه منذ عشر سنوات أو تزيد ، وليس عندى من خبره الا أنه نزيل مصحة عقلية ونفسية.

واذا نحن حللنا ما تحت أيدينا من شعره ألفيناه يدور حول عدة محاور رئيسية ففكرة الموت تطارده مطاردة عنيفة ، ويحس هو ألا نجاة له منها فيأخذ ينوح ويبكي دنياه ويصف القبر الموحش الذى ينتظره فى جوف فلاة لا يسلك اليها سالك ، وتدلف الأسرار الى اشعاره كما رأينا ففى دمه أسرار ، ووراء الليل أسرار وخلف الحياة أسرار وقدره تغلف سره أقدار ، فحياته كلها أسرار فى أسرار حتى لا يكاد يعرف من أمر نفسه ولا من أمر حياته ولا من أمر ما حوله شيئا .

وعمره كله ادلاج وتشرد ومجهول وهباء ، وهو بين أمس مخنوق وغد ليس له قيمة ومشاعره كلها حيرة وسراب وخداع والدنيا حوله هياكل ساكنة صامتة لا تحدثه ولا يحدثها فكأنما تنكره وكأنما ينكرها وبالاجمال يصف وجوده بأنه مأساة !

ولعمرى كيف يمكن أن تكون هذه حياة انسان ، وكيف يمكن أن يسمى مثل هذا انسانا حيا تعيش حوله

الحياة وتنبض بمختلف الأشكال والألوان وهكذا نعـــرف أن شـعره منذ بواكيره الأولى كان يشير الى هذه النهـاية الأليمة التى وصل اليها .

ومنذ نحو خمسين سنة كتب المازنى عن شعر شكرى فى كتابه الديوان المشهور فذكر أن كلمة الجنون تتردد كثيرا فى ثنايا هذا الشعر وأن التبرم بالحياة والنظر اليهـــا بمنظار شديد القتامة مع مطابقة ذلك لمظهر حركة الشاعر وسبحه فى الحياة موشك أن يجره الى فقـــدان العقل ، وضحك الناس يومذاك اذ حســبوها أفكوهـة من أفاكيـه أستاذنا المازنى رحمـه الله فى مهاجمـة زميله الشـاعر عبد الرحمن شكرى لكن الأيام صدقت رأى المازنى فقد حدثنى الصديق الأستاذ زكريا الحجاوى أنه رأى شكرى فى بورسعيد قبل وفاته بسنوات وكان تعبير الحجاوى عنـه فى هذا الحديث أنه يعيش مجنونا ، ولكنـــه فى جنـون هادىء صامت .

## شاعر الموشحات

من مشــهورى أدباء الجيــل الماضى الشاعر الصحافى الزجال المتصوف الوطنى محمود رمزى نظيم وكنيته كانت أبا الوفاء ، وكان رحمه الله أحد أعيان ندوة القاياتى فى شهر رمضان المبارك وكنا نسمع المعجب والمطرب فيها من أشــعاره وأزجاله ومواويله وأغانيــه وموشحاته بصوت خفيض مستحب ونبرات كأنها نغمات قيثارة صغيرة • وقد كان واحدا ممن يجلسون على مقهى الفيشاوى بحى خان الخليلى فى رمضان وحوله طائفة من المعجبين به والمستمعين له والآخذين عنه ما يضرب بسهم فيه من فنون الأدب • ثم هو أخيرا صاحب أدب صوفى كثير يملأ صفحات كثيرة من ديوانه الضخم الذى طبع بعد وفاته بقليل •

وكان أبو الوفـاء نتاجـا تلتقى فيــه الدماء المصرية بالسودانية بالتركية ويرتفع نسبه من جهة أبيه حتى يبلغ الحسين السبط عليه السلام • ولعل هذا وجه شبه يربط

بينه وبين أحمد شوقى الذى يلتقى فى نسبه الترك بالعرب.

وقد نشأ صاحبنا محبا للحرية وطنيا مغاليا فى الوطنية ذاق مرارة السجن والتشريد كثيرا بسبب بعض قصائده وأزجاله ، وخلال الحرب العالمية الأولى واعلان الحماية على مصر صب شاعرنا على الانجليز جام غضبه شعرا وزجلا ، وخطر له فى أثناء تلك الحرب أن يطلق لحيته ، فظن المحتلون أن فى الأمر سرا وأن اطلاقها يخفى وراءه أغراضا سياسية فهاجمت منزله فى احدى قرى المنوفية قوة من الجند بقيادة رجل انجليزى يقال له «ولسلى» وكان مفتشا للداخلية فى ذلك العهد وسأل المفتش أبا الوفاء فى لهجة صارمة :

ـ لماذا أطلقت لحيتك ؟

وأجاب أبو الوفاء :

ـ لأن هذا أمر يطلبه الدين .

وعاد المفتش يسأل :

ـ ولماذا لم تطلقها من قبل ؟

وأجاب أبو الوفاء :

ـ لأن الله هدانى الى الصراط المستقيم أخيرا •

لكن هذه الاجابات لم تقنع المفتش الانجليزى فأمر بحلق لحيته وتقدم اليه الجند يحملون مقصاتهم وأمواسهم فأتوا على لحيته ، وتسامع بعض الأدباء بالخبر فأرسل الى نظيم يعزيه فى لحيته ويرثيها ورد عليه الشاعر بقصيدة طويلة جعل عنوانها « لحية شاعر تؤرق الاحتلال » وقال فيها :

يا من تصبته يوما لحيتى فمضى
يلقى على عارضيها أعطر الزهر
خذها ـ اذا شئتها منى مكافأة
واستر بها مابدا من صفحة القمر

واشتهر أبو الوفاء بالوفاء ، ولم يقف وفاؤه عند بنى الانسان ولكنه تعداهم الى الأماكن والأبنية ، وحسبك أن تعلم أن له قصيدة طويلة نظمها فى رثاء دار اللواء يوم هدم وكان مقهى أمام مبنى صحيفة الأهرام القديم يختلف اليه كثير من الأدباء والساسة فى ذلك العهد وقد سمى باسم اللواء الصحيفة التى كان يصدرها الحزب الوطنى برئاسة المرحوم مصطفى كامل باشا وتبلغ هذه المرثية الطريفة خمسا وستين بيتا قال فى بعضها :ـ

في ذمة العمـــران يا بار اللوا
ويا بنـــاء مشمخرا قد هوى
سميت باسم لم يزل مقـــدسا
ورمز روح للجهـــاد أسسا
وراح مصطفى وراح حـــزبه
يوم دعاه للخـــلود ربـــه
وذهب الاســـم مع المسمى
وتركا في كل نفس همـــا
وكنت ندوة لأقطـاب الأدب
جل الذى أوحى اليهـــم ووهب
أذكر شوقي فيك وهو مدرسة
وللقريض كعبـــة مقـــدسة
أذكر فيك حافظ وصـــحبه
وشـــعره ووده وحبـــه
وكم بدا في مجلس جاماتي
حبيب أهل الفضـــل والرواة
يطرفنا بتحفـــة جـــديده
أو قصـــة في بابهـــا فريده

يشيد فيها بمآثر العـــرب
وخـــير ما يكتب فيهم ما كتب
وحبذا الصـــاوى أو الشناوى
كلاهما ليس له مســـــاوِ
ومصطفى حمام حين يجـــلس
محدثا تهفـــو اليـــه الأنفس
وعـــزب يســـمع والحناوى
بينمـا حمـــام منشـد وراو
حفاظـــة لكل ما يســـــر
وعندما يهجو لســـان مر
أشبه بالحاكى لأهـــل الفن
والبلبـــل المغرد المفتـــن
كأنه فى ذاته كشـــكول
تحـــار فى فنونه العقـــول
ثم ذكر أنه شاهد الهدم بعينه ووصفه فقال : ـ
ونزعـــوا السقوف والسلالما
وقد رأيت ووقفت واجمـــا

أسأل عن زوارك الأطلالا

ولم أجد من يسمع السؤالا

وقد روى الرواة أنه كان سريع الارتجال وأن رويته في شعره كانت مثل ارتجاله فقلما يبدل كلمة بكلمة فمعظم شعره من وحي البديهة الحاضرة وفي ديوانه الذي نشر بعد وفاته بقليل قصيدة نظم نصفها ارتجالا مشاركة لصديقه المرحوم حسين شفيق المصري وكان هو الآخر زجالا وشاعرا وصاحب فكاهة ونادرة . وقد التقيا حول مائدة وكأس وحرض شفيق صاحبه على الشراب ، لكن رمزي لم يستجب ، فقال شفيق كيف تكون شاعرا ولا تعاقرها فقال أبو الوفا دونك والارتجال لكي أثبت لك أنني أستطيع أن أقول الشعر بلا شراب فنطق شفيق بالمطلع وقفى على أثره رمزي ونظما معا في دقائق ما يزيد على ثلاثين بيتا، والشيء الذي أريد أن ألفت النظر اليه أن محمود رمزي نظيم هو شاعر الموشحات في عصرنا غير مدافع ولا منازع ، وبين يدي ديوانه أقلبه فأجد الشاعر قد اتخذ الموشحات مطية لأداء أغراضه الفنية ، فالشعر الصوفي للشاعر معظمه من الموشحات والشعر الوطني للشاعر

معظمه كذلك من الموشحات ودع عنك الشعر الوصفى والغرامى .

ونجيء الى مراثى الشاعر فنجد معظمها كذلك من الموشحات ففى رثاء سعد له موشحتان طويلتان ، وفى رثاء حفنى ناصف له كذلك موشح طويل يقول فيه : —

شمس حفنى غربت بعد الشروق
وانطـــوت بين أسارير النهار
كل انسان الى المـــوت مسوق
ليس للحى من الموت فـــرار
أين ذاك العـــلم ولى والادب
أين من كان فتى أم اللغات
كان كالبدر مضيئـــا واحتجب
واختفت فى القبر تلك البسمات
لم يكن ساد بمـــال أو نسب
انما اشـــعل نار الغـــرمات
ملأ الايـــام فخـــرا وذهب
فانطلقـــنا خلفه بالزفـــرات

زفـــرات أشبهت لمع البروق
وعيون تســـبل الدمع الغـزار

من قلوب من أساها فى حروق
أشـــعل الخطب نواحيها بنار

وكذلك مرثيته لأمير الشعراء أحمـــد شوقى وهى كذلك موشحة .

واذا كان محمود رمزى نظيم الملقب بأبى الوفاء قد مال الى فن التوشيح هذا الميل فلأن أذنه كانت موسيقية ولأن نفسه كانت تحب الغناء وتميل الى سماع المغنين ولا أدل على ذلك من مرثيته لفقيد الغناء الشيخ سلامة حجازى ففيها من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى مايكشف عن هذا الاتجاه فى نفس شاعرنا الراحل .

وهذا الشاعر الموسيقى المتصوف الوطنى المتطـــرف الذى يضم ديوانه الفخم الضخم عدة آلاف من الأبيات فى تلك الأغراض ، هذا الشاعر كان هجاء له هجاء لطيف الوقع وهجاء مقذع مسرف فى الاقذاع وقد أسمعنى قصيدة من النوع الثانى فى هجـــاء أمير الشعراء أحمد شـــوقى

لا أذكر منها شيئا الآن ، كما لا أذكر من هجائه الخفيف اللطيف شيئا .

ومات الشاعر أبو الوفاء محمود رمزى نظيم بسبب حقنة من البنسلين أعطيها خطأ لأن جسمه حساس لهذا النوع من الدواء فقضى نحبه على عجل مع أنه كان مثال التأنى ، رحمه الله .

## من ندوات العقاد

نريد أن نستعيد ندوة من ندوات العقاد ، ونستمع الى بعض مايدور فى هذه الندوة العقادية من مسائل الفكر والثقافة ، وغير مسائل الفكر والثقافة .

ولن نستقصى تاريخ ندوات العقاد منذ كانت تعقد فى حديقة الحيوان بالجيزة فى أواسط العشرينات من هذا القرن ، وانما سنصرف همنا الى الندوة الأخيرة التى كانت تنعقد فى بيت العقاد منذ أوائل الخمسينات حتى اختاره الله الى جواره .

هذه الندوة كانت تعقد يوم الجمعة ، مادام العقاد فى القاهرة ، وما دام صحيحا معافى من المرض قادرا على استقبال روادها .

وعن هذه الندوة يقول أحد تلاميذ العقاد المرحوم محمود صالح عثمان فى كتابه « العقاد فى ندواته » .

( اذا أتيح لامرىء أن يمر من شارع شفيق غربال بمصر الجديدة يوم جمعة عند منتصف العاشرة صباحا فى جميع أشهر العام عدا شهرين أحدهما فى الشتاء والآخر فى الصيف فانه ليجد أمام المنزل رقم ١٣ لفيفا من الناس ينتظرون الاذن بالدخول منهم الشاب والشيخ والكهل •
ويطل عليهم رأس من الدور الثانى يدعوهم الى الدخول فيسرعون الخطى .ويرتقون الدرج حتى يستقروا فى حجرة متسعة سبقهم اليها بعض الاخوان وقد توسطهم عملاق الفكر عباس العقاد ، وهكذا تبدأ الندوة قبل العاشرة لتنتهى بعد ساعتين • وتستوعب الحجرة نحو أربعين بين جالس أو واقف فى الشرفة • ويجلس خارجها نحو الثلاثين تدار عليهم أكواب تحمل عصير الفاكهة ثم أقداح القهوة ) •

ثم يقول الأستاذ عثمان ( وتقاليد الندوة لا تتيح التعرض للمسائل السياسية أو الدينية ولكنها ترحب بالموضوعات الأدبية والفلسفية والتاريخية .والاجتماعية والفنية والعلمية ولكل انسان أن يتقدم بسؤاله فى أى موضوع من هذه الموضوعات فيتلقى الأجابة عنه فورا ) •

أما الحجرة التى ذكرها الأستاذ محمود وقال انها

متسعة فقد قستها بنفسى فوجدت أن مساحتهـا تقل عـن أربعة أمتار فى ثلاثة ، وجربت أقصى ما تسعه من المقاعد فوجدتها تتسع لأقل قليلا من أربعين شخصا ، ويقف فى الشرفة نحو خمسة وفى المدخل نحو ثلاثين ، وقد أحصينا عدد الحاضرين يوم أقام الرواد عيد ميلاد العقاد الأخير فى سنة ألف وتسـعمائة وثلاث وستين فوجدنا الحاضرين يكادون يبلغون مائتين غصت بهم غرفات شقة العقاد، وغرفات الشقة المقابلة لها التى كان يستأجرها لأبناء أخيه وبناته •

وفى هـذا الحفل الشهير غنى العقـاد مع تلاميذه قصيدته « يوم ميلادى » التى يقول فى مطلعها : ـ

يوم ميلادى تقـدم وتأخـر وتكـلم

وفى هذا الحديث ، نحسب أن وصف الندوة وأشهر اجتماعاتها ليس الا تمهيدا لذكر بعض ما كان يقال فيها •

سئل العقاد عن معنى الكرم فقال « صحة النسب » ثم أردف قائلا ان من التفسيرات اللطيفـة للآية الكريمة « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » أعلاكم قـدرا وأفضلكم ألا ترى الى كلمة كرم بالانجليزية انها ترجع الى كلمة

ترجمتها الناسلة وهى المكونة للجنين وسـئل عن الفرق بين الكرم والسخاء فقال انك تدعو الرجل الى السخاء فيسخو ، ولكنه يكرم من ذات نفسه ، فالسخاء يأتى بعد تسخية ولكن الكرم ليس كذلك ولهذا ساغ أن يوصف الخالق بأنه كريم ولم يسغ أن يوصف بأنه السخى

وسئل العقاد فى الندوة عن رأيه فى سيجموند فرويد فقال :

« ان فرويد عبقرى رائد لا شك فى ذلك الا أنه بالغ فى تأثير النوع أو الجنس على النفس الانسانية كما بالغ فى تفسير أشياء بالنفسية مع أن بعضها يمكن تفسيره بالبيولوجية وهذا ما أدركه خلفاؤه من بعده • كما بالغ فرويد أيضا فى تفسير الموت على انه حنين للعودة الى المادة مع أن الموت مناقض للحياة وهو كما يعبرون عنه « فقدان الشعور بالحياة » وفرويد نفسه يمكن اعتباره حالة نفسية فقد كانت له أطوار شاذة • كان يدمن التدخين وكان اذا أراد السفر ذهب الى المحطة ولبث بها ساعتين حتى يحين موعد القطار • وكانت أحلامه كلها عن أمه وعند فرويد أن الرهبنة فشل فى الجنس ألا ترى أن الراهبة تجلى فى

أيهى زينة عند قبولها بالدير كأنها عروس تزف .

وفي هذه الندوة استمع العقاد واستمعنا معه مئات المرات الى السؤال التقليدى « لماذا لم تتزوج » وفيها استمعنا مئات المرات الى جوابه التقليدى : أنا لا أكره المرأة ولا أنفر من الزواج ، لكن الزواج فى رأيى - ككل شىء - لا ينتهى حتى تلتقى فيه الارادة بالوسيلة ، فلا يكفى أن أريد لكى أتزوج ، ولا يكفى أن توجد الوسيلة وحدها لكى أتزوج ولم تجتمع فى حياتى الارادة بالوسيلة ، والا كنت تزوجت فكثيرا ما وجدت الارادة فى وقت لم توجد فيه الوسيلة وكثيرا ما وجدت الوسيلة فى وقت لم تكن فيه الارادة . وهو جواب كما ترى منطقى ، قوى المنطق ، وفى الندوة سئل العقاد مرة عن أحب مؤلفاته اليه ، فقال :

| | |
|---|---|
| ابن الرومى - حياته من شعره | فى الأدب |
| سعد زغلول | فى التراجم |
| عبقرية عمر | فى العبقريات |
| وحي الأربعين | فى الشعر |
| الله | فى الفلسفة |

وسئل العقاد مرة عن ذكاء اليهود فذكر أنهـم غير مبرزين فيه وقال ان هناك قصة لطيفة تروى تدل على مقدار الذكاء اليهودى : ان اخوة يوسف وهم من أئمة اليهـود عندما جاءوا أباهم بقميصه ملوثا بالدم الكذب فاتهم أمر هام لا ينبغى أن يفوت شخصا عاديا فى تدبير أمر ، فاتهم أن يخرقوا قميصه حتى تظهر آثار أنياب الذئب فالقميص كان سليما تماما ولقد قال لهم أبوهم : أى ذئب حكيم هذا الذى يأكل يوسف ويترك القميص سليما بلا خرق .

ويسألونه مرة سؤالا محرجا ، لماذا أصدرت كتـاب الديوان مع صديقك المازنى تهاجم فيه أحمد شوقى ، ويقول العقاد مجيبا :

كانت أبواب الصحف مغلقة أمامنا وكان أحمد شوقى مديرا للادارة العربية فى قصر الملك وتحت يده عشرون ألف جنيه للمصاريف السرية لرؤساء تحـــرير الصحف واستطاع بهذا أن يجذب الصحف الى صفه ، فكل صحيفة تكتب شيئا فى نقد شعره تحرم من هذه المصاريف السرية، وكان له دعاة منتشرون فى المجـــالس يروجـــون لأدبه

ويدافعون عنه ، فلم يكن أمامنا اذن سبيل سوى كتابة الديوان واصداره .

ويسأله سائل عن الالحاد ، مظاهره وأسبابه ، فيقول العقاد :

الملحد لا قدرة له على فهم الكون وتفسيره وهو غير كامل الحس لأنه لا يستجيب لظروف الكون وأسراره ومغيباته ولا يستطيع أن يدرك أن كل ذلك لا يمكن أن يكون سلبيا وأول دلالة على الالحاد فقر فى الطبيعة الانسانية وعدم قدرة على التفاعل مع عوامل الكون والاحساس بما فيه ، ومشكلة الكون لا يمكن أن تحل بهذه البساطة السلبية الا فى نفوس ضعاف القدرة . فى تاريخ الدنيا تحس باستجابة عوامل الطبيعة وتفسير لها . وفى داخل الكون احساس بالارتباط بين النوع الانسانى والحوادث الطبيعية وقد عبر عن هذا اينشتاين بقوله « أنا متضامن مع الكون » والعلم لا يحل كل المشاكل لأنه يقوم على التجربة والتجربة لا يمكن أن تستخدم فى كل شىء والجانب الصوفى ليس عدما ولكنه طريقة للقياس ولا يكون وراءه فراغ والقوة الغيبية موجودة فعلا بل لا يمكن الا أن تكون

موجودة • أما مقدار التوفيق بين العقل الشامل والعقل الانسانى فهو موضع الحيرة غير أن هذا لا ينفى وجودها أزلية كونية ونحن نقيسها بمقاييسنا لأننا لسنا آلهة •

ولا تكون الندوة دائما فلسفة وعلما بل انها أحيانا قد تكون فكاهة وضحكا حين يروى العقاد أحدث نكتة سمعها أو حين تروى له وحينئذ يأخذ فى التعقيب عليها وتحليلها وقد يمتزج الجد بالفكاهة فمن ذلك أن يسأله سائل ، ما قولك فى قول الشاعر أو الناظم

ومن غريب ما ترى العينان

أن سؤال القبر بالسريانى

فيضحك العقاد قائلا ، السوريانية لغة ناقصة ولا تملك مقومات اللغة الكاملة فلا يمكن بل لا يعقل أن تكون لغة الحساب في القبر أو لغة الملائكة كما يقول بعض المنتسبين الى الدين •

# الارتجال والمرتجلون

نمضي مع شعر الارتجال والشعراء المرتجلين ونقول بادىء الرأى اننا لا نرى للارتجال فى حد ذاته مزية من مزايا الفن وان كان مزية من مزايا القـــدرة والمرانة على نظم الشعر وتقصيد القصيد ، لأن الشعر يبقى الى الأجيال المقبلة بمقوماته الفنية من أفكار وخيالات وحسن صياغة ورونق وتكون هذه مدخلة الى الخلود بغض النظر عن الزمن الذى قضاه الشاعر فى نظمـــه وتنضيده ، لكننا مع هذا لا نستطيع أن نكتم اعجابنا بالشعراء المرتجلين الذين يبهرون الناس فى المجالس والمنتـــديات بسرعة بديهتهم ومن الشعراء من يتملأ بالفكرة فيجلس الى أقلامه وأوراقه لتـــدوينها فتسيـــل الأبيات من أقلامه ســـيلا بيتا وراء بيت وهـــؤلاء من نعبر عنهم بأنهم ممن تتصـــل بديهتهم برويتهم وبعض الشعراء يتخذ من ذلك طبعا يلازمه كالشاعر العراقى المعروف عبد المحسن الكاظمى الذى كان ينظم القصيدة المئويه فى مجلس واحد ويمليها على الجالسين معه املاء ،

ومن الشعراء من تتداوله الروية والارتجال ، ومن هؤلاء العقاد الذى نظم قصيدته فى ذكرى حافظ ابراهيم والتى ألقيت فى حفل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالاسكندرية نظمها فى القطار فى المسافة ما بين مدينة بنها ومدينة طنطا وهى لا تتجاوز أربعين كيلومترا يقطعها القطار فى نحو نصف ساعة وكان من المقرر ألا يلقى العقاد فى الحفل شعرا ثم جد من الظروف ما اقتضى أن يقول فنظم القصيدة على عجل والى ذلك يشير فى القصيدة حيث يقول :

لم تكن حصتى من الحفل نظما
لا ولا قلته بوعد مدينا
غير أن المزار شط بحاد .
ود لو كان حاضر الصوت فينا .

وعدة أبيات هذه القصيدة المرتجلة بضعة وثلاثون بيتا .

واشتهر بالارتجال كذلك فى عصرنا الشاعران

ابراهيم ناجى ومحمد الحناوى وأذكر أننا كنا نتناول طعام الغداء على مائدة المرحوم دسوقى أباظة باشا وبعد الغداء جلسنا فى غرفة الاستقبال نشرب القهوة فدخل علينا صاحب الدولة المرحوم اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فاستقبلناه بما يليق بمقامه من الاحترام وكنا نسمع أنه يعالج الأدب والشعر فسألناه أن يخوض معنا فى ميدانيهما فخاض وأجاد ، فاقترح ناجى أن نوجه اليه الشكر شعرا فأخذنا نرتجل فى ذلك قصيدة أبلغنا أبياتها أكثر من عشرين بيتا فى بضع دقائق وكان الواحد منا ينظم بيتا وما يكاد ينتهى من انشاده حتى يتلو الثانى بيتا جديدا ثم الثالث من بعدهما فى سرعة عجيبة ولا أذكر من هذا النص المرتجل الآن شيئا .

ومن أشهر شعر الارتجال بيتان لأبى تمام يروون أنه كان ينشد ممدوحه قوله :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم

في حلم أحنف فى ذكاء اياس

فقاطعه أحد الحاضرين وأظنه الكندى الفيلسوف لقد

شبهت الأمير بمن هم دونه من العرب فاستمر أبو تمام ينشد قائلا :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

ثم قدم القصيدة بعد الانشاد فاذا البيتان ليسا فى مسودتها الأصلية فعرفوا أنه قد أضافهما جوابا على اعتراض المعترض .

وحكى ابن خلكان عن ابن القوطية أن الشاعر الأندلسى يحيى بن هذيل لقيه منحدرا من ضيعة له بسفح جبل قرطبة وهى بقاع من الأرض الطيبة المونقة وكان ليحيى ضيعة هناك فلما تلاقيا قال يحيى لابن القوطية :

من أين أقبلت يا من لا شبيه له
ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فرد ابن القوطية على الفور :

من منزل يعجب النساك خلوته

وفيه ستر على الفتاك ان فتكوا

قال يحيى فما تمالكت أن قبلت يده اذ كان شيخي ومجدته ودعوت له .

وفي ديوان أبي الطيب المتنبي كثير من شعر الارتجال الذي خلقته بعض المناسبات الطارئة. مما يدل على أن أبا الطيب كان صاحب بديهة كما كان صاحب روية لكننا نقتصر هنا على طريفة من طرائف إرتجالاته :ـ

وفد على سيف الدولة الحمداني شاعر من أهل بغداد ورفع اليه أبياتا يذكر فيها فقره ويزعم أنه رآها في منامه ومنها :

كان رسم الثناء مني شعرا

فوق خسننا كلؤلؤ في نظام

لم يقدر لقاؤك اليوم فاستطـ

ـهرت فيه بالكتب والأقلام

فتفضل به ووقع فاني

موثق الحبال في يد الأعدام

زادك الله رفعة وعلوا

وسرورا يبقى على الأيام

وقد دفع سيف الدولة الرقعة الى أبى الطيب ليوقع فيها بما يقتضيه المقام ، فكان التوقيع هذه الأبيات المرتجلة من شعر أبى الطيب :

قد سمعنا ما قلت فى الأحلام

وأنلناك بدرة فى المنام

وانتبهنا كما انتبهت بلا شيء

فكان النوال قدر الكلام

كنت فيما كتبته نائم العيـ

ـن فهل كنت نائم الأقلام

أيها المشتكى ـ اذا قدر ـ الاعـ

ـدام هل رقدة مع الاعدام

افتح الجفن واترك القول فى النو

م وميز خطاب سيف الانام

الذى ليس عنه مغن ولا منـ

ـه بديل ولا لما رام حام

كل آبـائه كـرام بنى الدنـ
سيا ولكنـــه كـــريم الكرام

والارتجال هنا يكاد يكون صنو الروية اذ فيه اختيار ألفاظ وتأنق أسلوب ، مع مقابلات واشارات بلاغيـة تدل على فطنة المتنبى وقوة مرانته على نظم القصيد .

ونسبوا الى الفرزدق انه ارتجل قصيدة عدتها سبعة وعشرون بيتا فى مدح على زين العابدين بن الحســين بن على رضى الله عنهم ، حين كان هشام بن عبد الملك يطوف بالبيت وأراد أن يصل الى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام فنصب له منبر وجلس عليه ينظر الى الناس ومعه جماعة من أعيان أهل الشام فبينما هو كذلك اذ أقبل زين العابدين فطاف بالبيت فلما انتهى الى الحجر تنحى له الناس حتى استلم فقال : رجل من أهل الشام :

من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام لا أعرفه وكان الفرزدق حاضرا فقـال : أنا أعرفه فقـال الشامى : من هو يا أبا فراس ؟

فأجابه :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم

اذا رأته قريش قال قائلها
الى مكارم هذا ينتهى الكرم

ينمى الى ذروة العز التى قصرت
عن نيلها عرب الاسلام والعجم

يكاد يمسكه عرفان راحته
ركن الحطيم اذا ماجاء يستلم

فى كفه خيزران ريحه عبق
من كف أروع فى عرنينه شمم

يغضى حياء ويغضى من مهابته
فما يكلم الا حين يبتسم ..

مشتقة من رسول الله نبعته
طابت عناصره والخيم والشيم

هذا ابن فاطمه ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا!

فليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم

والنظم فى هذه القصيدة يؤكد الارتجال وإن كان بعض العلماء ينسبها الى غير الفرزدق .

ولكن عجيبة العجائب فى ميدان الارتجال ما فعله الامام عمر بن الوردى حين رجع الى دمشق ودخل مجلس أحد القضاة فلم يحتفل بة أحد ولم يعرفوه وأحب بعض الحاضرين أن يعاكسه فانتظر حتى حضر رجلان يريد أحدهما أن يبيع للآخر قطعة أرض وطلبوا من الوردى أن يكتب لهما العقد فسأل ابن الوردي : أكتبه نظما أم نثرا فزاد استهزاؤهم له وقالوا : بالنظم ، هات فسأل عن اسم البائع فقيل له : اسمه مالك بن أحمد بن الأزرق وعن المشترى فقيل له : هو محمد بن يونس بن سنقر . الطرفان المتبايعان من دمشق ثم سأل عن مساحة الأرض وعن حدودها فى جهاتها الأربع وعن أسماء الجيران ثم

سأل كذلك عن الثمن المعجل منه والمؤجل ثم تناول الورقة وكتب العقد هكذا :

باسم اله الخلق هذا ما اشترى
محمد بن يونس بن سنقرا

من مالك بن أحمد بن الأزرق
كلاهما قد عرفا من جـــلـق

فباعه قطعـــة أرض واقعـــة
بكورة الغوطة وهى جامعـة

بشجر مختـــلف الأجنـــاس
والبيـع للأرض مع الغـراس

وذرع هـــذى الأرض بالذراع
عشرون بالطـــول بلا نـــزاع

وذرعهـا بالعرض أيضا عشرة
وهو ذراع باليــــد المعتبرة

وحدها القبــلى مالك التــقى
وحائز الرومى حـــد المشرق

ومن شمال ملك أولاد علي
والغرب ملك عامر بن جهبل

وهذه تعرف من قديم
بأنها قطعة بيت الرومي

بيعا صحيحا لازما شرعيا
ثم شراء قاطعا مرعيا

بثمن مبلغه من فضه
وازنة ، جيدة ، مبيضه

جارية للناس في المعاملة
الفان منها النصف ألف كاملة

قبضها البائع منه وافية
فعادت الذمة منه خالية

وسلم الأرض الى من اشترى
فقبض القطعة منه وجرى

بينهما بالبدن التفرق
طوعا فما لا حد تعلق

ثم ضمان الدرك المشهور
فيه على بائعه المذكور

وأشهدا عليهما بذاك فى
رابع عشر رمضان الأشرف

من عام سبعمائة وعشرة
من بعد خمسة تليها الهجره

والحمد لله وصلى ربى
على النبى ، وآله والصحب

يشهد بالمضمون من هذا عمر
ابن المظفر المعرى اذ حضر

وقد جمعت هذه المنظومة المرتجلة كل ما يجب أن يكون فى العقد من أسماء وحدود وثمن وشهود وتاريخ وهى مقدرة فى النظم لابن الوردى ولا شك .

# عالجت الأقدار الأقدار

نقف الآن مع أديب غريب الأطوار ، لم يشتهر الا بغير الأدب مع أنه شاعر وزجال وصاحب مواويل ومقامات ومقالات ... وتعالوا نطو الزمن القهقـــرى ثلاثين سـنة أو أقل قليلا وكنت اذ ذاك مديرا لإدارة المخازن والورش والعقود والمشتريات بمصلحة البريد المصرية جئت اليهـــا منقولا من وزارة الأوقاف ولم أكد أستقر على الكرسى فى عملى الجديد حتى فاجأتنى مشاكل الأختـــام والأكيـاس والطرود وصناديق البريد ، وأحاطت بى من كل جانب احاطة السوار بالمعصم ، ووجدت نفسى فى دوامة من العمل تستهلك عقلى ونفسى وجسمى اســـتهلاكا وجاءنى رئيس المخزن العام يشكو متعهدا مهملا يتأخر فى اتمام ما يوكل اليه من الأعمال ولم تفلح فى تقويم اعوجاجه غرامة ولا تهديد بفسخ عقد ، فقلت لعل كلمة لينة أتحدث بهـا اليه تفلح فى إصلاحه وتقويم ما اعوج من سلوكه وطلبت من

رئيس المخزن العام أن يدعوه للقائى وجاء الرجل فاذا هو فى منتصف الطريق بين الشباب والشيخوخة ، يدع لحيته مطلقة فيبدو شعرها مختلطا بين البياض والسواد وثوبه زائت ، وفى عينيه بريق ذكاء ••• وقلت للرجل ماخطبك؟ قال ان ظروفى المالية لاتساعدنى على أن أفى بتعهدى لكم فى حينه فلو تأخرتم على قليلا لسلمتكم ما تريدون متقنا غاية الاتقان • أنا كثير العيال قليل الرزق ثم بادرنى بأنه شاعر وتلا على بيتا ما زلت أذكره الى الآن يقول فيه :

انما نكبتى وليدة حظى
فعلاج الأقدار بالأقدار

قلت : مالك تنظر الى الدنيا بمنظار أسود هكذا؟ صحيح أن الأقدار بيد الله ولكن عليك أن تسعى ما وسعك السعى ، ثم ترضى بعد ذلك بالأقدار وأعجبنى منه حسن القائه هذا الشعر ووضوح نبراته مع تمثيل المعنى عند الالقاء فقال لى : اننى ماء ركد ، وأزهرى قد فسد ، يعنى أنه كان يطلب العلم فى الأزهر مدة من الزمن ثم لم يستطع أن يستمر فى طلب العلم لحاجته الى الانفاق على نفسه وذويه •

وجاءنى المسئول عن أحبار خواتم البريد والرجل جالس معى يخبرنى أن السوق خالية من هذا النوع من الأحبار وأن الموجود بالمخازن لا يكاد يكفى مكاتب المصلحة المنبثة فى أنحاء البلاد الا شهرا أو بعض شهر ... وكان خبرا هزنى لأن انقطاع الأحبار يعنى ببساطة أن مكاتب البريد مهددة بالتوقف وكانت هذه الأحبار من نوع خاص يمتزج فيه اللون الأسود بالزيت ولها درجة ثبوت على الورق حددتها مواصفات قررها معمل الحكومة الكيميائى الذى كان تابعا لمصلحة الكيمياء ، وكان يشرف عليها فى ذلك الحين أستاذنا الدكتور أحمد زكى رئيس تحرير مجلة العربى الآن ....

هزنى الخبر كما قلت هزا عنيفا لأنه يجىء بعد تعيينى فى وظيفتى بفترة وجيزة وأنه امتحان لقدرتى على توفير المواد المطلوبة لمكاتب البريد ، ولاحظ الرجل اضطرابى فقال أنا أستطيع أن أصنع لك أحبارا تفوق الأحبار التى تستوردونها من الخارج وتكون مطابقة تمام المطابقة للمواصفات التى قررها معمل الحكومة الكيميائى لولا أن عقبة واحدة تعترضنى ، فأسرعت أسأله : وما هى فأجاب

المال اللازم لاعداد كمية من هذه الأحبار. قلت ان عقبة المال تهون وسأهونها عليك بالفعل الآن ونقدته. خمسة جنيهات على شريطة أن يصنع الأحبار أمام مكتبي. وعلى مرأى منى ، وصدع بالأمر ؛ وأعد بخمسة جنيهات أحبارا كنا نشتريها من قبل بعشرين جنيها . فبعثت الى بمعمل الكيمياء استوثق من تمام مطابقتها للمواصفات وجاء الرد بالمطابقة فاشتريت منه الكمية التى صنعها بعشرة جنيهات؛ أعنى اننى أعطيته خمسة جنيهات أخرى ربحا خالصا له . وكان هذا المبلغ على تفاهته بداية لاصلاح أمره ؛ وصلاح حاله فانتعش حتى اتسع دكانه وكان دكان زنكوغراف واشترى مطبعة كانت تعد فى يوم ما من أكبر مطابع القاهرة وأقبلت الدنيا عليه ، وعالجت الأقدار الأقدار كما كان يقول فى بيته القديم:

انما نكبتى وليدة حظى
فعلاج الأقدار بالأقدار

قلت فى صدر هذا الحديث ان هذا الرجل كان شاعرا وزجالا وصاحب مقامات ومواويل وأقول الآن انه أقبلت عليه الدنيا وأحب أن يجد لمواهبه متنفسا فأنشأ

صحيفة أسبوعية ساخرة سماها « الصاروخ » وكان يحرر معظمها فيكتب في العدد الواحد مقالا ومقامة وزجلا وشعرا ....

وعن هذه الصحيفة الأسبوعية أختار الآن أمثلة من من مؤلفاته في هذه الميادين من مقامة له عنوانها « المفتقة لها مقامة » والمفتقة طعام أشبه ما يكون بالمربى مصنوعة من العسل الأسود مع بعض النباتات والأعشاب يأكلها من يطلب السمنة وكانت السمنة مطلب النساء الى عهد قريب ... ومقامة هذا الأديب تسخر من طالبات السمنة سخرية لاذعة ذكر فيها انه تزوج فتاة رشيقة نحيفة القوام اسمها سميحة يقول فيها : وقد كنت مبسوطا من نحافتها مسرورا من قصر قامتها ففي كسوتها تقل التكاليف وفي أكلها تقنع بنصف الرغيف . الا أن جارة لعينة قالت لها أتحبين أن تكوني سمينة ؟ فالرجال ليس لهم أمان ولا يحبون الا السمان فوجدت سميحة ضالتها في جارتها وعملت الجارة على ترويج تجارتها واختصتها كل يوم ببطرمان من مخلوطة بلون القطران لها رائحة الملوحة المعتقة يسمونها المفتقة وأخذت سميحة تأكل منها بشراهة

لا تطـاق حتى أصبحت امرأة على أوســع نطاق ، وأصبح اللحم على جسمها وفيرا وغدت على الأرض شيئا كثيرا .

فقلت لهــا يا أم ضرغام اقللى
فقد صرت فوق الأرض عبئا على الأرض
رويدك قد أصبحت شيئا مربعا
فلم أدر طولا فى محيطك من عرض .

ونصحتها بأن تقلع عن هذه الحماقة وأن تعـود الى عهد الرشاقة ولكنهــا هزت كتفيها وبان الغضب عليهــا

فقلت لها : ــ

قد كنت يــوم بك التقيــت
نحيفـــة كالضـــفدعة
واليــوم لســت مبالغا
لا تنقصى عــن أربعــة
فالكرش يمـــلأ غرفة
يبــدو كتلك الصومعــة
والسقف من هــول بــه
يبــدى لسيرك طرقعــه

انى لأظهر في جوار
ك يا سميحة امعه
أخشى على ضرغام أن
تنسى وتكليني معه !

ومن مواويله قوله فى احدى السابحات الفاتنات :

يادى الجمال اللى يسبى العقل ويموت
يا دى الرموش التى تشفى القلب وتفوت
يا دى العيون اللى خلت عقلى بيفوت
البحر ذاته لقاكى عايمه ع الميه
علشان عيونك يا حلوه ميته احلوت !

ومن أزجاله قوله :

أنا الأديب الأدباتى
والفن أحسن هواياتى
ما يهمنيش ماضى وآتى
وقلبى مليان بالايمان
اللى خلقنى ما ينسانى
آكل رغيف بيجى التانى

والحمد كلمة على لسانى

والناس ما يليق بالجدعان

ومشيت على راس الدنيا

أدوس عليهــــا بالعنيــه

ما تركت فيها ولا لنيـــة

الا أدوسها كمان وكمان

ولهذا الأديب فى كل ميدان من ميـــادينه الشــعر والزجل والمقامة والموال انتاج يمكن أن يملأ كتبا فحبــذا لو جمعها ونشرها وهو الآن يستطيع ذلك بعد أن زالت نكبته التى كانت وليدة حظه وعالجت الأقدار كما كان يطلب •

# الارتجال

نتحدث عن البديهة الحاضرة والفطنة اليقظة، والذهن المتوقد اللاقط ، فنذكر طرفا من أطرف ما جاءت به القرائح على البديهة ، وبين يدى هذا الحديث نذكر ما يقصدونه بالارتجال وما يعنون به البديهة •

الارتجال فى أصل اللغة السهولة والانصباب ومنه شعر رجل اذا كان سبطا غير جعد أو هو مأخوذ من قولهم نزل الرجل البئر من غير حبل برجليه فكأنهم شبهوا اقتدار الشاعر على القول من غير أهبة واستعداد باقتدار نازل البئر على النزول الى الماء من غير حبل ولا آلة •

أما البديهة فقد رأى بعضهم أنهم من بده بمعنى بدأ، وقال صاحب المحيط بدهه بالأمر فاجأه به والبديهة أول كل شيء •

والبديهة والارتجال على هذا متقاربان الا أن أهل

الصناعة كما يقول على بن ظافر الأسدى صاحب كتاب « بدائع البدائه » ميزوا كل واحد منهما عن الآخر ، وخلاصة ما نقله ابن ظافر عن أهل الصناعة هؤلاء أن البديهة أدنى مرتبة من الارتجال وأقل منه طبقة .

فالارتجال فى نظره هو « أن ينظم الشاعر ما ينظم فى أسرع من خطف البارق واختطاف السارق وأسرع من التماح العاشق ونفوذ المارق ، حتى يخال ما يعمل محفوظا أو مرئيا ملحوظا من غير حاجة الى كتابة أو تعلل بتقفية.

أما البديهة فهى « أن ينزل الشاعر عن هذه الطبقة قليلا ويفكر مقصرا لا مطيلا » وابن ظافر الأسدى صاحب بدائع البدائه هو وزير الأشرف أحد بنى أيوب وقد تبرم ابن ظافر بالوزارة وكره الامارة فأراد أن ينفصل عنهما وتردد مدة حتى رأى أحد أتباعه فى المنام أن شيخا أوقفه فى جامع دمشق وقال له أجز :

ان ابن ظافر سوف يظـ
ـفر بالذى يرجوه عاجـل

فقال :

ظفـــرت عـــداه بخيبـــــة
وغدا لما قد شـــاء عاجل

وتحقق هذا الحلم بنيل الشيخ ابن ظافر ما أراد فما هو الا أن وقر فى خلـــده أن يؤلف كتـابا عن الاجازة والبديهة والارتجال وما حول ذلك وتحقـــق ما أمله من ذلك فألف هذا الكتاب .

كتاب ابن ظافر هذا لطيف جدا ، فقد جمع فيـــه ما تفرق فى مختلف كتب الآدب والتاريخ عن الاجازات والارتجالات والأجوبة السريعـــــة وبدائع التمليط ... والتمليط أن يتفق شاعران أو أكثر على تجريب خواطرهم فى العمل فى معنى واحد أو هو أن يتســاجل الشــاعران فيصنع هذا قسـيما وهذا قسـيما لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبـه ، ومن أشـــهر أمثلة التمليط ما وقع بين امرىء القيس والحـــارث بن قتادة اليشكرى المعـــروف بالتوأم اليشكرى وقد بدأه امرؤ القيس وجرى الشعر كالآتى :

أحار ، ترى بريقا هب وهنـــا
كنار مجوس تستعر اســـتعارا

أرقت لـه ونام أبو شريح

اذا ما قلت قـد هدأ استطارا

كأن حنينـه والرعد فيـه

عشـار وله لاقت عشـارا

فلم يترك ببطن الأرض ظبيا

ولم يترك بجلتهـا حمارا

فلما أن دنا لقفـا أضـاح

وهت أعجاز ريقـه فخارا

وقد رووا أن امرأ القيس كان يقـول الصدور غير ملتزم بقافية دو الذى عز عليه أن يستمر فى التمليط .

وتمليط عبد الجبار بن حمديس الصقلى الشـاعر المعروف روى أنه كان فى أشبيلية يوما ودعاه السلطان فلما جلس فى حجرته قال له : افتح الطاق الذى يليك ففتحه فاذا بكوز زجاج على بعـد والنار تلوح من بابيـه وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر فحين تأملتهما قال لى : ملط : « انظرهما فى الظلام قد نجما » .

فقلت : كما رنا في الدجنة الأسد
فقال : يفتح عينيه ثم يطبقها
فقلت : فعل امرىء في جفونه رمد
فقال : فابتزه الدهر نور واحدة
فقلت : وهل نجا من صروفه أحد ؟

ومن لطائف البديهة ماروواه عن شاعرين من معاصريه حين رآيا أن يقول في الحمام على البديهة وأن يحكم حكم بينهما بالفضل لمن يرى فقال الأول :

لله يوم بحمام نعمت به
والماء من حوضها ما بيننا جار
كأنه فوق شفاف الرخام بها
ماء يسيل على أثواب قصار

فانتقدوا عليه تشبيهه الماء بالماء واستبردوا ما أتى به فقال الآخر :

وشعر أوقد الطبع الذكاء له
أو كاد يحرقه من فرط اذكا

أقام يجهد أياما رويته

وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فسار الشطر الثانى من البيت الآخير مثلا لمن يفسر الشيء بمثله .

وقد كد ابن ظافر نفسه ، كثيرا جدا ، فجمع كثيرا مما قاله الشعراء فى مجالسهم بديهة وارتجالا واجازة وتمليطا ، وخص نفسه وعصره بكثير مما قال ، وكثير مما روى ولكن هل نستطيع أن نزن هذا الشعر المتعجل السريع بشعر الروية واعمال الفكر والموازنة بين الألفاظ وتفضيل بعضها على بعض ؟ وهل يمكن أن تكون هذه الأشعار المرتجلة فى مستوى بلاغتها مقارنة للأشعار الأخرى فى سماوة البلاغة والبيان ؟

الحق ان هذا الشعر السريع يخلو كثير منه من التجويد الذى تفرضه الروية الهادئة والنظر المتأمل المطيل ولكن هذا لا يمنعنا أن نقول انه أصدق تمثيلا للشعراء وعصورهم ومجالسهم من غيره ، اذ فيه ينطلقون على سجيتهم ويتحدثون بما يريدون دون تزويق أو افتعال ،

ولقربه من مجال الحياة اليومية أى أنه يباشر وقائع الحياة مباشرة ، فانه يجيء لطيفا مقبولا ويجيء قطعا لا طول فيها ولا امتداد فيسهل حفظها وروايتها وقد يصدف موقعا من النفوس فتكبره وتستعظمه من ذلك ما رووا من أن جماعة جلسوا وأخذوا في ذم الدهر واخنائه على أهـل الفضل والأدب واذا بكلاب الصيد لبعض الأثرياء قد أبرزت في الوشي والديباج والحرير فقال أحدهم :

من كان يكسو الكلب وشـ

ـيا ثم يقنـع لى بجـلدى

وطلب من بعض الحاضرين اجازته أى قول بيت أو أكثر بوزنه وقافيته فقال :

الكـلب خـير عنده

منى وخير منه عنـدى

فجـاء البيت الثانى رائعا ولطيـفا فاستحسنه كل الحاضرين .

وقد حقق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم كتاب ابن ظافر وبذل فيه جهدا مشكورا .

وعصرنا الحديث ملىء بالبدائه والارتجالات والاجازه

والتمليط ، بل ان ما قيل فيه يملأ عشرات المجلدات من مثل مجلد ابن ظافر هذا ولكننا لا نعنى بقيده واثباته ولا نهتم بروايته وحفظه فيضيع .

وفى العراق حضرنا ندوة لطيفة بمنزل الصديق الشاعر هلال ناجى فنظم الحاضرون قصيدة طويلة فكاهية أثبتها بعضهم فى دفتر عنده وقالوا ان مثل هذه الندوة فى العراق كثير ، وفى الكويت مساجلات ومبادهات وارتجالات وتمليط ، وفى مصر ، لا تمر جلسة واحدة من جلسات لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب من ارتجال وبديهة وتمليط واجازة من محمود غنيم وحسن كامل الصيرفى ومحمد عبد الغنى حسن وصالح جودت وروحية القلينى وعادل الغضبان . وتجيء طرافة أمثال هذه الأشعار من أنها مطابقة لمناسبتها مأخوذة من واقعها .

فهل نطمع يوما أن نرى كتابا أو كتبا ككتاب ابن ظافر الأزدى يسجل بدائع البدائه لأحمد السقاف ومحمد ملا حسين وعبد الله سنان وخالد سعود وابراهيم الحضرانى فى الكويت ولهلال ناجى وحازم سعيد أحمد وعبد الله الجبورى وخالد الشواف فى العراق وحسن عبد الله

القرشى ، وعبد العـزيز الرفاعى وأحمد عمر عبـاس وعبد العزيز الربيعى فى المملكة العربية السعودية وحسن كامل الصيرفى ومحمود غنيم وصالح جودت فى مصر وغير هؤلاء من الشعراء فى أرجاء الوطن العربى الكبير .

هو مأمل متواضع ، ونرجو أن يحققه الله لخـدمة أدب عصرنا .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنـا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

العوضى الوكيل

# الفهرس

| الموضوع | رقم الصحيفة |
|---|---|

الموضوع | رقم الصحيفة



آبيات الشعراء :



الكلب :

الموضوع رقم الصحيفة

**الشعر التائه :**



**الشعر الحلمنتيشى :**



**المدح فى الشعر :**



**تمنح جنيهان من الخيرات :**



**المسبحة :**

| الموضوع | رقم الصحيفة |
|---|---|




رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٢٠ / [illegible]

وزارة الثقافة

# الهيئة المصرية العامة للكتاب

المركز الرئيسى : ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٠٥٥/ ٧١٠٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القاهرة

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٣٦ شارع شريف | ت : ٤٠٠١٢ | ١٩ شارع ٢٦ يوليو | ت : ٥٥٠٣٢ |
| ٥ ميدان عرابى | ت : ٤٦٣٨٣ | ٢٢ شارع الجمهورية | ت : ٩١٤٧٢٣ |
| ١٣ شارع المبتديان | ت : ٢١١٨٧ | ٠ الباب الأخضر بالحسين | ت : ٩١٣٤٤٧ |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| الاسكندرية | : ٤٩ شارع سعد زغلول | ٢٢٩٢٥ | الجيزة | : ١ ميدان الجيزة | ت: ٨٩٨٣١١ |
| دمنهور | : شارع عبد السلام الشاذلى | ٢٦٠٥ | المنيا | : شارع ابن خصيب | ت:٤٤٥٤ |
| طنطا | : ميدان الساعة | ٢٥٩٤ | اسيوط | : شارع الجمهورية | ت:٢٠٣٢ |
| المحلة الكبرى | : ميدان المحطة | ٤٢٧٧ | اسوان | : السوق السياحى | ت: ٢٩٣٠ |
| المنصورة | : أول شارع الثورة | ٣٨٦٤ | | | |

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغداد – ميدان التحرير – عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للكتاب
فى خدمة القارئ العربى

# المكتبة الثقافية

## جامعة حرّة

- خلاصة الفكر القومى والإنسانى
- تجعل المعرفة متعة تعمّق الشعور بالحياة .. وسلاحًا يساعد على الانتصار فى معركة الحياة

يصدر قريبا :

**لبنات المستقبل**

إعداد

دكتور محمّد مصطفى الفولى

---

الثمن ١٠ قروش






مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب